مصطفى كامل

رائد الوطنية

د. حسين فوزى النجار

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

مصطفى كامل

رائد الوطنية

بقلم

د. حسين فوزى النجار



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٤

:الاخراج الفنى والغلاف

:اميمـة على احمـد

الاهـــداء

الى زوجتى الغالية

عطيـــات محمود جاد

رائدة التعليم التجارى

فهى صاحبة الفضل الأول فى كل ما كتبت

وما أصـــدرت من مؤلفات

واكبارا لها فى كل ما كتبت

وأبدعت من مؤلفات وبحوث

وما كان من حياتها الحانية الرقيقة

اسعدها الله ووفاها من الخير

بقدر ما منحت من خير .

المـؤلف

دكتور حسين فوزى النجار

مقدمــة

ما أن صدر كتابى ـ احمد عرابى : مصر للمصريين ، ولقى من الرواج ما لم أكن اتصوره .

وما دار بخاطرى من قبل مع ما صدر عن عرابى من مؤلفات ودراسات لم تكن قاصرة على اللغة العربية والمؤلفين المصريين ، بل عدتهم الى الأجانب من شتى الجنسـيات ومن مختلف الملل والنحل ، ان ثم زيادة لمستزيد ، حتى حملتنى الأستاذة سميرة عرابى حفيدته الحفية بتاريخه والزهرة من زهور تفوح بذكراه ؛ ان أكتب سيرته ؛ ولعلها كانت تعرف علاقته بجدى ، وما كان بينه وبين جدى من قربى الجوار وقرابة الأهل والعشـيرة ، واقدمت ، وكان كتابى عنه ـ احمد عرابى : مصر للمصريين ـ ولم يلق كتاب من حفاوة القراء ، ما لقى كتابى عنه ، حتى نفدت طبعته ، ويضنى الكثيرون حتى الأصـدقاء فى البحث عنه ، ولولا اننى درجت على الحفاظ على عدد من النسخ لكل كتاب أصدره ؛ ما وجدت للساعين لقراءته نسخة أهـديها لهم ، وكان أن نوه الرئيس حسنى مبارك به فى خطابه الأخير عن ثورة ٢٣ يوليو ، وردها الى ما كان لثورة عرابى من احياء ليقظة مصر فى عهـده المبارك ، وما أدركت أن يكون لكتـابى مثل هذا الأثر البالغ ،

حتى عرض له شيخ الصحفيين حافظ محمود فى مقالين بصحيفتى الجمهورية والمساء حينذاك عرفت وايقنت أننى قدمت شيئا جديدا ، وكنت قد درجت بعد أن هجرت الكتابة السياسية الى كتابة تاريخ مصر فى سيرة أعلامه ، وكان آخر ما كتبت فى هذا الصدد : ــ سعد زغلول الزعامة والزعيم ــ ثم الرئيس محمد نجيب : صفحة من تاريخ مصر المعاصر ــ ويصدر عن دار رياض الريس للكتب والنشر بلندن ــ وكان من الطبيعى أن أطوف بحياة ــ الزعيم مصطفى كامل ، وعلى كثرة ما كتب عنه ، كما كتب عن عرابى ، لم استطع أن اتبين الصورة الحقيقية لحياة ــ نبى الوطنية ، مصطفى باشا كامل ــ أو مصطفى كامل بعيدا عن الألقاب والرتب ــ كما درجت فى كتابتى عن تاريخ مصر فى سيرة اعلامه ، حين اتخذت من الأثر الكبير الذى تركوه على صفحة التاريخ فى مصر فى سيرة اعلامه ، فلطفى السيد : استاذ الجيل ، ورفاعةالطهطاوى : رائد فكر وامام نهضة ، وعلى مبارك : أبو التعليم ، وسعد زغلول : الزعامة والزعيم ، و ــ محمد نجيب : صفحة من تاريخ مصر المعاصر ، و ــ الدكتور هيكل : تاريخ جيل ــ واخيرا كتابى هذا عن احمد عرابى : مصر للمصريين .

وعلى كثرة ما كتب عن ــ الزعيم مصطفى كامل ، كما كتب عن ــ احمد عرابى ــ من قبل ، أدركت أن الصورة ما زالت غامضة القسمات ، فالبطل فى التاريخ ، أو صاحب السيرة ، يعمل ويسلك وينهج ، ويترك للمؤرخ أن يعى ما وراء عمله ، وما هو مسلكه ونهجه فيما يعمل ، وقد تتوه الحقيقة وراء الصورة البادية ، وعلى المؤرخ أن يسعى وراء الحقيقة فى نهجه ومسلكه

ليبدو جليا ما كان غامضا ، وهو ما أفصحت عنه فى كتابى ــ التاريخ والسير (١) ــ بقولى :

(اننا ما زلنا نشق طريقنا بجهد فى ميدان البحوث التاريخية ما كان منها منصبا على التاريخ ، وهو ما يستوعب غاية جهدنا ، أم متصلا بفلسفة التاريخ أو التاريخ كعلم له أصوله وطرائقه ومناهجه ، وهما ما لم نعن بهما بعد وما زلنا نعيش فيه عالة على العرب ، وحتى فى هذا نكتفى بالقشور ، ولا ننفذ الى اللب ، فتبدو الفكرة غائمة فى أذهاننا . وتحملنا بعبدا عن جوهر الحقيقة التاريخية . ومن ثم يأتى تحليلنا للواقعة التاريخية فجا سقيما منحرفا ، فاذا تجنبنا تلك المسالك الوعرة فى ميادين الفلسفة التاريخية ، أو مناهج البحث التاريخى الحديثة ، كانت روايتنا للتاريخ سردا مملا لأحداث ماضية لاتبين فيها حكمة التاريخ أو القصد من دراسته) .

وقد عرف مصطفى كامل بنهجه فى كفاحه السياسى والوطنى وان لم يكن ثمة فاصل بينهما ، فنهجه فى كفاحه السياسى يقوم على الحجة والمنطق ، وهو ما يمكن أن ندعوه ــ الدبلوماسية ، ونهجه فى كفاحه الوطنى يقوم على ابراز الحق من الباطل وتعريف الشعب ، أو الجماعة بحقوقها وما عليها من واجبات حياله .

وكان مصطفى كامل فى علاقاته الخارجية دبلوماسيا من الطراز الأول ، وفى علاقاته بمواطنيه ، وطنيا من الطراز الأول يثير وينبه ويرشد ويقود ، وقد تسنم القمة فى الحالين

(١) المكتبة الثقافية رقم ١٢١ نوفمبر ١٩٦٤ .

تحدوه معرفة واسعة ودراسة واعية وذكاء قل أن يكون له ضريب ، حتى غدا عاشقا ومعشوقا ، وقد وهبه الله من الوسامة ، ما وهبه من ذكاء ، ومن قدرة على مواجهة الأحداث ، ومازال فى بواكير الصبا لم يخط بعد الى شبابه الغامر ، حتى تنبأ له ، — على مبارك باشا ، وكان وزيرا للمعارف بأنه — امرؤ القيس زمانه — وبشره بمستقبل عظيم ، حين شكا اليه من نظام الامتحانات الذى أدى الى رسوبه ورسوب زملائه ، وهو ما يشير أليه الدكتور هيكل فى ترجمته لحياته ، بقوله (٢) :

(ان اعجاب ناظر المعارف على باشا مبارك ، بهذه الجرأة ، هو الذى جعله يعدل عن هذا النظام فيؤدى ذلك الى نجاح مصطفى وكثيرين من زملائه) .

ويضيف الرافعى — أن على باشا مبارك — : (أعجب بجرأته واقتنع بشكواه ، وحجته ، فعدل عن هذا النظام مما ادى الى نجاح مصطفى وكثيرين من زملائه) ، وكان الوزير (ينشطه ويدعوه الى منزله ويناقشه فى المسائل العلمية والاجتماعية ، ويقدمه الى جلسائه من العلماء والكبراء ، ويثنى عليه أمامهم)

ويمضى الرافعى فى روايته عن نشأة مصطفى كامل الوطنية ، فيقول : (انها بدأت وهو بعد فى المدرسة الثانوية ، ونقصد بالنشأة الوطنية اتجاهه الى العمل والجهاد فى سبيل حرية مصر، واستقلالها ، بدأ يشعر وهو فى السادسة عشرة من عمره أن عليه واجبا نحو وطنه يجب أن يؤديه ، ظهر هذا الشعور أول ما بدأ وهو فى المدرسة الخديوية ، اذ أسس جمعية أدبية وطنية

---

(٢) عبد الرحمن الرافعى بك : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ١٤ ، ١٨ .

أسماها : ـ جمعية الصليبة الأدبية ـ واختار لها أعضـاء من أصدقائه فى التلمذة ممن توسم فيهم الفضل والذكاء والكفاية ، وكانت ثمـة جمعية أخرى تسمى ـ جمعية الاعتدال ـ تعقد جلساتها الأسبوعية فى مدرسة الأمريكان ، فكان المترجم يزورها ليتعرف الى من فيها ، من الأفاضـل والأدباء فاذا صحت هـذه الرواية فان الغاية منها ليست ما يقوله الرافعى ، فاذا كان ـ كما عرفنا من دراسـة تاريخه ـ معنيا ـ بالدعوة للقضية المصريـة فى الخارج ، فان عليه أن يتعرف الى ما يدور فيها لتكون زادا له فى دعوته التى قادها فى أوربا ضـد الاحتلال البريطـانى ، فاذا دعاهم الى زيارة جمعيتة فليس كما يقول الرافعى . وانما ليتألف قوما قد يكون عونا له فى دعوته الوطنية ، وهو ما كان منه فى الواقع حين بدأ دعوته لجـلاء الانجليز فى أوربا ، وفى كل مجتمع يلم به فيها) .

وقد أوتى ملكة الخطابة والحديث فى تلك السن الباكرة ، وهو ما يشـير اليه الرافعى ، حين ـ كان يقف ـ فى الجمعيـة خطيبا مساء كل جمعة مرتجلا ما تمليه عليه البديهة من الخطب ، وتجلت مواقفه الخطابية ، وهو بعد فى هذه السن المبكرة ، وأول خطبة القاها كانت فى فضل الجمعيات فى العالم ـ وأخذ يراسل الصحف من ذلك الحين ، ويتجلى تعلقه بالوطنية منذ كان بالمدرسة الثانوية من خطابه الذى أرسله الى شقيقه ـ على فهمى بك ـ فى ١٢ يولية سنة ١٨٩١ بمناسبة حصوله على شـهادة الدراسـة الثانوية ، واعتزامه دخول مدرسة الحقوق الخديوية ، اذ يقول فيه مخاطبا أخاه ، الذى كان وقتئذ ضابطا بالسودان (٣) :

---

(٣) نشر الرافعى فى كتابه عن مصطفى كامل صـورة زنكوغرافيـة لهذا الخطـاب .

(السلام عليك أيها الأخ الحبيب ، اليوم ابشرك أن العقبة الكؤود التى أمامى ، وهى شهادة الدراسة الثانوية قد زالت من أمامى ، فقد نلتها بعد أن أضنت جسمى فأصبح نحيلا لا صحيحا ولا عليلا ، ولكنى أؤمل أن تعود الى القوى لأدخل مدرســة الحقوق الخديوية ، فقد عزمت على الانضـمام الى صفوف طلابها لأنها مدرسة الكفاية والخطابة ، ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ، وانت تعلم انى أميل اليها كثيرا ، وعزمت كذلك على تأسيس جمعية ، أسميها ـ جمعية احياء الوطن ـ وربما دهشت من اقدامى هذا لضعفى الذى تعلمه فى اللغــة الفرنسـية ، ولكن اعتمــادى على الله وعلى نفسى أكبر ضامن لنجاحى والله الموفق لأقوم سبيل) .

ويرى الرافعى : (أن هـذا الاتجاه ليس وليد اليوم الذى كتب فيه الخطــاب ، بل هو وصف لشــعور نفسى سابق خالج المترجم منذ كان طالبا بالمدرســة الثانوية ، وقبل أن يتخطى تلك العقبة الكؤود .. لذلك يمكننا أن نحدد مبدأ نشــأة العقيــدة الوطنيــة بســنة ۱۸۹۰ ، وهو أصح السنين لتاريخ ظهور تلك العبقرية الوطنية التى سطع نورها فى أرجاء وادى النيل وبعثت النهضة القومية من مرقدها) .

وقــد ولد مصــطفى كامل فى الرابــع عشر من أغســطس سنة ۱۸۷٤ ، قبل الاحتلال البريطانى مصر ـ ۱۸۸۲ ـ بثمــانى سنوات ، وكان لقاؤه مع على باشــا مبــارك ـ وهو يومئــذ ، وزيرا ـ أو ناظرا بلغة العصر ـ أوائل ـ سنة ۱۹۹۰ ـ كما يذكر الرافعى ، نقلا عن الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ـ من أنه

اى مصطفى كامل ـ (دخل ذات ليلة على ـ على باشا مبارك فى منزله ، وكان يومئذ تلميذا بالمدرسة الثانوية ، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء ، وراح يجادل الباشا فى أمره ويقول : اننى لا أطلب منك الا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذا مثلى ، وما يدريك الا اكون عظيما اخدم وطنى غدا بأكثر مما تخدمه انت اليوم ، قال هذا ثم انصرف غاضبا وكانه ليس بتلميذ ، وكأنما الباشا الذى يخاطبه ليس وزير المعارف العمومية ، وبعدما خرج ابتسم الباشا ، وقال : اننى اعجب كثيرا بشجاعة هذا التلميذ ، ويلذ لى أن يتكلم أمامى كثيرا بمثل هذه الشجاعة النفسية ، ولذلك لم أخبره بما أمرت به اليوم لأجله ، وكان قد اصدر أمره بما طلب منه من قبل ، وتركه يخاطبه بمثل هذه اللهجة ، متلذذا بما كان يعجبه من كلامه وجداله ، قال الشيخ على يوسف : من تلك اللحظة عرفت ـ مصطفى كامل ـ وكأنما عرفت رجلا ، لا تلميذا بالمدرسة) (٤) .

وسواء صحت الرواية أو لم تصح فانها لا تغير ، ولا تضيف مما كان ـ لمصطفى كامل ـ نبى الوطنية من مجد أثيل ، وزعامة مليئة بالحب والاجلال وتاريخ قل أن يكون لغيره ، بما عرف عنه من حصافة وصدق وقدرة ، وما تمتع به من حب واجلال واكبار مازال ينبض به قلب مصر الى اليوم .

ولعل هذا مما حدانى الى كتابة سيرته ، عندما اخذت اكتب تاريخ مصر فى سيرة أعلامه ، وكان آخر ما كتبت ـ احمد عرابى ـ

---

(٤) الرافعى ـ عبد الرحمن بك : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ١٦ .

مصر للمصريين ـ وكان نهجي فى كتابة تلك السير أن اعرض للأثر الكبير الذى خلفه أصحابها على صفحة التاريخ .

وما لى لا اكتب سيرة ـ نبى الوطنية مصطفى كامل ـ وقد غدا اغنية الجيل الذى سبق جيلى ، ليبقى عطرها فواحا يتنسمه جيلى منذ صبانا الباكر ، والى يومنا هـذا ، وأن يكون عنوان الكتاب ـ كما درجت فى كتابة سير أعلام مصر تعبيرا عن حياة ـ نبى الوطنية دون منازع

وباللـه التوفيـق ؟

دكتور حسين فوزى النجار

الزمالك ١٥ صـفر ١٤١٣

الموافق ١٤ اغسطس ١٩٩٢

١/١ ـ لقـاء الأجيـال

كانت حياته ، وكان كفاحه لقاء بين جيلين ، جيل الثورة العرابية وقد انتهت بخيانة الخديو توفيق واحتلال مصر وقد احتلها الانجليز سنة ١٨٨٢ ، وجيل ما بعد الثورة العرابيـة ، حين بدات الأمة تنسى مظالم المـاضى ، ايام حكم اسماعيل ، وتشعر بشدة وطاة الحكم البريطـانى الذى قام على أساس من المصـالح المـادية وحدها ، فلم يعن الانجليز الا بتخفيف الضرائب ليخيم الجهل ، وليكن الغرض الأوفى للتعليم خلق الموظفين ... فى هذه الفترة التى شعرت فيها الأمة بالحاجة المعنوية للعزة القوميـة ، وللكرامة الانسانية بعث القدر مصطفى كامل بشيرا بهذه الحاجات الساميـة ، رفيع الصـوت ، عالى الكلمة ، طلق اللسـان ، قوى الجنان ، حلو الأسلوب ، يتغنى لقومه بما تجيش به نفوسـهم فى غور أعماقها ، فكان طبيعيا أن يلتف الظمأى حول هذا الورد من الكلام السائغ ، يسمعون عنده الأناشيد التى تطرب لها نفوسهم ، وتهتز لهـا قـلوبهم ، ويجـد فيهـا شـعورهم الحبيس منفـذا ومتنفسا ..

وقد احتل الزعيم الشاب من قلوب المصريين جميعا غايـة الحب والاجـلال ، حتى فى قـلوب وعقـول من خـالفوه الرأى والوسيلة ، وغدا أنشودة على لسان كل مصرى ، وكان نشـيدا

جياشا بالمنى والأمل ، هاديا ومهديا ، فاذا كان للوطنيـة انبياء فهو نبى الوطنيـة ، واذا جاء الأنبيـاء هـداة للنـاس من عبث الشيطان وشرك الضلال ، وخطل الفعل . فقد جاء مصطفى كامل هاديا للمصريين من عبث الاستعمار ، وضلالة المستعمرين وخداعهم فيكشف سوأته ويخزى ضلالته ليكون له النصر فى النهايـة ، ويلتف المصريون جميعا حول رايته ، من خالفه النهج ومن استوى معه على الطريق ، وقد جمـع بين أصـالة السـياسى المتمرس بالعلم والمعرفة والذكاء الواعى ، والدراسـة العميقـة المستنيرة وادراك الدبلوماسى ، ومداورته وقدراته ليكسب الخصـم ويعتز به الصـديق ويفخر به الانصـار والاتبـاع ، فلا يجد منهم غير النصرة والحماس كقائد الجند ، لا يابه الجند بالموت والفداء طالمـا رأوه على رأس جنده فى المعركة .

ولم يلحق جيـلي هـذا الذى ولد سـنوات ثورة ١٩١٩ بمصطفى كامل ، وان نشأنا لنسمع به على لسان الآباء أغنيـة فواحة بالاكبار والاجلال .

ومما تعيه الذاكرة من أحاديث الصبا الباكر ، حديث أبى عن جنازة الزعيم الشاب الذى مات فى عمر الزهور ، وكان وقتها تلميذا بالمدرسة الخديوية ، وقد خرجت مصر جميعـا تشـييع جنازة زعيمها الراحل رحلة الأبد ، حتى حجبت الطرابيش الحمراء أرض الشـارع ، واصطف تلاميـذ المدارس جميعـا الابتدائيـة والثانوية وطلاب المدارس العليا ، فى موكب الحزن الذى لا تسمع فيه غير التشيج والبكاء ، وامتلأت شوارع القاهرة بالمشيعين من الريف ، وقد اتشح النـاس جميعا بالسـواد حزنا على الزعيم العظيم ، وقد حمل أهل دنشواى النعش فوق اعناقهم ، وصمت الجلال المهيب يلف المشيعين بأسى بالغ ، وقد رأى ابى ، كما رأى غيره فى مسيرة الجنازة جنيهات ذهبية ، لم ينحن أحد لالتقاطها

حيث هي على الأرض يراها الجميع وتبرق أمام أعينهم فى شمس فبراير الكالحة .

كان حديث ابى يهزنى هزا ، والجميع فى صمت يستمعون ، وكان اكثرهم ممن شهدوا من بعد ثورة ١٩١٩ ، وكان اصغر من شهد الجنـازة من أهله وعشيرته ، فقد جاءها ابوه وعمه وغيرهما ليشاركوا فى تشييع نبى الوطنيـة الى رحاب الخـلد ، ولتبقى ذكرى كفاحـه وشـبابه ووفاتـه البـاكرة فواحـة بأمجـاد الكفـاح .

وكان وصف أبى للجنازة ، ولحزن الأسى والوله الذى ساد المشيعين ينبعث من الأعمـاق ، وكان ذلك بعد وفاة نبى الوطنية بما يقرب من عقـدين من السـنوات ، فلا ارى من الجميـع الا صمتا للاستماع ، حتى اذا ثنى بالحديث عن جهـاده رايت الجميـع ــ كما أذكر ــ وقـد اهتزت مشـاعرهم بما يلوح على وجوههم من فخر واعزاز ينم عن ولاء لمصر لا ينضب ، واكبار لنبى الوطنية لا يغيض .

ولئن كان انشاء الجامعة أول ما لف المصريين فى رداء واحد ، فان وفـاة مصطفى كامل قد جمعتهم مرة أخرى على احساس واحد ينم عنه رثاء قاسم أمين ، ولم يكن من شيعته ، فيقول :

(١١ فبراير ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هى المرة الثانية التى رايت فيها قلب مصر يخفق المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشـواى ، رأيت عند كل شـخص تقابلت معـه قلبا مجروحـا وزورا مخنوقـا ، ودهشـة عصبية باديـة فى الأيـدى وفى الأصوات ، كان الحزن يخيم على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة مختلط بشىء من الدهشـة

والذهول ، ترى النـاس يتـكلمون بصـوت خافت ، وعبارات متقطعة وهيئة يائسة ، منظرهم يشبه منظر قـوم مجتمعـين فى دار ميت ، كأنمـا كانت ارواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة ، ولكن هـذا الاخاء فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحـا حتى يراه كل انسـان ، اما فى يوم الاحتفال بجنـازة صاحب ـ اللواء ـ فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله ، وانفجر بفرقعة سمع دويها فى العاصمة ، ووصل دويها الى جميع انحـاء القطر ، هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من احشاء الأمة من دمها واعصابها هو الأمل الذى يرسـل حرارته الى قلوبنا الباردة هو المستقبل) .

ويكتب الدكتور هيكل فى ترجمته للزعيم مصطفى كامل باشا تعليقا على ما كتبه قاسم أمين ، فيقول :

(لم يكن عجيبا ان يكتب قاسـم أمين على هدوء نفسه وحسن تقديره هذا الذى كتب ، ولم يكن عجيبا أن يحرك مصر من أقصاها الى أقصاها الحزن لوفاة الزعيم الشاب ، فقد جاء به القدر فى فترة من فترات هذا الوطن حين بدات الأمة تنسى مظـالم المـاضى أيام حكم اسماعيل وتشعر بوطأة الحكم البريطـانى الذى قام على أساس المصـالح المـادية وحدهـا فلم يعن الا بتخفيف الأعبـاء المـالية ، ناسيا كل اعتبـار غير تخفيض الضرائب ليخيم على البلاد الجهل ، وليكون الغرض الأسمى من التعليم خلق الموظفين ، وليشعر المصريون بافتقارهم للحـاكم البريطـانى ، وبضعفهم أمامـه ، فذلك كله هـين ويسير ما دامت الضرائب

المرهقـة ، وما دامت السخرة والكرباج قد ألغيتا ، ليكن ذلك الكلام غير ذى غناء ولتبق القوة الغاشـمة قديرة على أن تسير فى طريقها ترفع من شأن المصـالح المـادية على حساب حاجات النفس المعنويـة ، فلن يغير ذلك من قيمة هذا الذى يشدو باسـم الوطن ، ومن محبة الناس له شيئا) ...

لذلك كان جزاء وفاقا أن تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم مصطفى كامل ، وكان حقا أن يرى قاسم امين فى وحدة هـذا الشعور بفقد الزعيم الشاب الذى كرس حياتـه ليتغنى باسم مصر ، وليعلن انه وهبها حياته وحدة فى الأمل الكبير بمستقبل زاهر) .

ومن الحق أن أضيف الى ما قيد هـذه الرؤية التاريخيـة التى فاتت على كثير من المؤرخين ، وهى أن ثورة مصر سنة ١٩١٩ قد أورى شعلتها يوم جنازة الزعيم الشاب ــ مصطفى كامل ــ بعد أن وئدت ثورة عرابى وان بقيت ثورة عرابى تلفح المصريين بشتى الانفعالات والتهاويم بين طامع يلوذ بالحكم ، وثائر يرى توفيـق الخديو خائنا أبله ، وهو ما يعبر عنه الدكتور هيكل فى ترجمتـه لسيرته ، بقوله : (لينتهى به الأمر الى أن يكون فى تاريخ مصر صورة غير محبوبة ولا ممقوتة ، صـورة مرت فى هـذا التاريخ ، فكان أثرها فيه سلبيـا ، هو أثر العـاجز عن أن يقوم لبـلاده أو لنفسه بخير) .

وكان الشيخ الامام محمد عبده أشد قسوة من الدكتور هيكل فى الحكم على توفيق ، فيقول فى حديثـه الى صحيفة ــ بول مول جازيت ــ الانجليزية :

(ان توفيق باشا أساء الينا أكبر اســاءة لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله انضم الى أعدائنـا أيام الحرب ، لا يمكن أن نشعر نحوه بأى احترام ، ومع هـــذا اذا ندم على ما فرط منــه ؛ وعمــل على الخــلاص منكم ، ربما غفرنا له . لأننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية) .

ولا أعتقد أن كتب عن شخصية من شخوص التاريخ ، كمـا كتب عن عرابى ، ويشاء القدر أن تكون حياته ملحمة من ملاحم التاريخ المصرى ، وأن تبقى بصماته حتى وقتنا هذا جلية ظاهرة بداية من الاحتلال البريطانى الذى أفرز جهاد الزعيم مصطفى كامل حتى ثورة ١٩١٩ ، وقد انتهت زعامتها الى سعد زغلول ، وكان سعد زغلول بدوره ربيبا لثورة عرابى ، كمـا كان مصطفى كامل بدوره ، وان اختلف الطريق والنهج ، فقد جـاء مصطفى كامل ليواجه وضعا سياسيا غير ما واجه سعد زغلول ، وما أصبح من وضع جديد باعلان الحماية البريطانيـة لمصر ، والغاء السـيادة العثمانية ، وقد غدت أشبه بمستعمرة من مستعمرات التاج ، بل لعل وضعها كان أشـد قسـوة من مستعمرات التاج البريطانيـة بوضعها الذى أملته مقتضيات الحرب العالمية الأولى ، وكانت وفاة مصطفى كامل يوم الاثنين العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ ـ الثامن من محرم سنة ١٣٢٦ هـ ، وقبل ثورة مصر سنة ١٩١٩ بما يزيد على عشرة أعوام .

وكان ما واجه سعد زغلول غير ما واجه مصطفى كامل ، وان بدا المسار عند كليهما شبيها بالآخر ، فقد اتجه سعد زغلول الى أوربا كما اتجه اليها مصطفى كامل ، ولعل مصطفى كامل قد لقى فى أوربا ما لم يلق سعد زغلول ، فقد استطاع مصطفى كامل

أن يثير الرأى العـــام الأوربى ، وفى فرنســـا بالذات ما لم يلق سعد زغلول ، وقد انتهت اليه زعامة مصر ، وأصبح هو المعبر عن ارادتها ، وقد ضنت عليه الحكومة البريطانية وعلى صحبه بالسفر لعرض قضـية مصر على مؤتمر السلام فى باريس (١) .

ورأت دار الحماية نفى سعد زغلول وصحبه الى خــارج البلاد ، ويفضــل أن يكون ذلك فى الهند أو سيلان ، وكأنها تعيد الى الاذهان ما لقى عرابى بعد ثورته ، وفى الثامن من مارس ١٩١٩، قبض على الباشوات الأربعة ـ سعد زغلول ، ومحمد محمود ، واسماعيل صدقى ، وحمد الباسل ، ونقلوا فى اليوم التالى الى بور سعيد ومنها الى مالطة .

واجتاحت الثورة مصر من اقصاها الى اقصاها لنفى سعد وزملائه من أقطاب الوفد ، بصــورة أذهلت الناس حتى أكثرهم ايمانا بثورية المصريين ، ولا ريب انها كانت البذرة التى غرسها مصطفى كامل فى نفوس المصريين ، وما كان لها من اثر ظهر جليــا بعد فاجعة دنشــواى ، وقضت بعزل كرومر ، وقد آب بسخط المصريين وغضــب الانجلــيز ، حتى كانت استقالتــه فى ابريــل سنة ١٩٠٧ ، وكان صاحب اليد العليا فى شئون مصر ، معتمدا بريطانيا منذ سنة ١٨٨٣ حتى سنة ١٩٠٧ .

وكتب مصطفى كامل فى اللواء بتاريخ ١٢ ابريل سنة ١٩٠٧ بعنوان (استعفاء اللورد كرومر) ، يقول :

« ما حدثت حادثة دنشواى ، ودوى دويهــا فى العــالم كله ، وقامت لها قيامة الأحرار فى انجلترا ،

---

(١) سعد زغلول : الزعامة والزعيم للمؤلف ص.ص ٥٥ ـ ٦٨ .

وعرف المتمدنون فى أنحاء الأرض مقدار بشاعتها ، وفظاعتها وشدة انفعال المصريين من الحكم والتنفيذ فيها حتى ذاع وشاع أن مدة اقامة اللورد كرومر فى مصر محدودة ، وانه لا يلبث أن يترك وظيفته لما أصاب سياسته من الخيبة والفشل) .

ويعرض لتاريخ لورد كرومر فى مصر ، فيقول :

(ماذا نذكر من سياسة اللورد كرومر وخطته فى مصر ؟ نذكر انه الضارب لعرش الخديوية بيد من حديد ، نذكر انه الذى فتح السودان برجالنا وأموالنا، ثم جردنا من كل حق وسلطة فيه ، نذكر انه الذى سلب الحكومة المصرية والوزارة الأهلية كل وجود ونفوذ وحياة ، نذكر انه الذى حرم الفقراء من التعليم فى مدارس الحكومة ، وحارب اللغة العربية ، نذكر انه الذى قرب الذين يضحون بأشرف العواطف لخدمة المطامع الذاتية ، نذكر انه الذى رمى المصريين بكل جهل وتقصير ، وأعلن للملأ وجوب سيادة الانجليزى على المصرى ، ولو كان هذا رئيس ذاك ، نذكر انه الطاعن على الدين الاسلامى فى تقريره الأخير ذلك الطعن الذى هاجت له عواطف المسيحيين مثل المسلمين ، نذكر انه الذى عمل ما فى وسعه لمقاومة المطالب الوطنية ، وانكاره كفاءة الأمة واستعدادها لنيل الحقوق النيابية ،نذكر انه الذى ، سعى لقتل العواطف الوطنية بالمال ، وظن أن الثروة وحدها كافية لارضاء امة وشراء ضمائر الشعب ، نذكر انه بنوع خاص الذى أراد الانتقام من شعور الناشئة

المصريـة فى حادثـة اضراب الطلبـة ، فرقى دنلوب مستشارا للمعارف ، وأراد الانتقام من عواطف الأمة كلها ؛ فكان ما كان فى دنشواى ، مما يذكره الخاص والعام ، نذكر انه لم يكتف بذلك كله ، بل تعمد أمام هذه الأمة ، وهى حزينـة كئيبة على منكوبى دنشواى مكافأة من سلكوا فى هذه الحـادثة المشئومة المسلك الذى يحبه وتنفر منه الأمة كلها) .

وفى ختام مقاله هذا يناشد الزعيم المصريين أن يتفقوا ويتحدوا ويتضامنوا للمطالبة بحقوقهم (والمناداة بميولهم بكل همة وصرامة وبلا خوف ولا حياء ، لأن الأمة لا تبلغ مأربها الا اذا كانت قادرة على نيله ، وليس فى مظـاهر القوة مظهر ارقى واسمى من المجاهرة بالحق والدفـاع عن مصـالح الأوطـان بكل قلم ولسـان) .

٢/١ ـ البدايــة

وكانت البداية توحى بما لهذه العبقرية الوليدة من اثر فى حياته وحياة جيله ، وكأنما القدر قد رسم طريقه ومنحاه على درب الحيــاة ، لم يعش طويلا ، وكانت ظاهرة لا نرى فيها غير نأمة من نأمات القدر حين نرى او نلحظ أن هــذا الجيــل من معاصرى مصطفى كامل ، لم يمتد بهم العمر طويلا ، الا قلة جاوزت حد العمر ، فلم يعش قاسم أمين طويلا وكانت وفاته بعد وفــاة مصطفى كامل بأربعين يوما ، وكذلك كانت حيــاة سيد درويش وحياة المنفلوطى وآخرين غيرهم .

وقد ولد مصــطفى كامل فى الرابع والعشرين من اغسطس سنة ١٨٧٤ م ـ اول رجب سنة ١٢٩١ هـ ، فى نفس السنة التى ولد فيها الخديو عباس حلمى الثانى ، وتمضى بهما الأحــداث سويا ليلتقيا على غاية وهدف حتى اختلف بينهما المسار ، ومضى كل فى سبيل ، ليمضى الخديو الى منفاه بعيدا عن مصر ، بعد اعلان الحماية ، وبعد وفــاة مصــطفى كامل فى فبرايــر ١٩٠٨ بست سنوات ، وكان مصطفى كامل قد استقام على نهج وغاية لتصبح مصر اغنيته الفريدة ، ويعلن قيــام الحزب الوطنى ، ليمضى بعد اعلانه الى محراب الخــالدين ، نبى الوطنية التى أورى شــعلتها سعد زغلول من بعد ، وقد أوقد مصطفى كامل شرارتها الأولى ،

لتصبح غاية ونهجا لكل مصرى ، وهو ما يشير اليه ، ويؤكده ــ الجود P.G. Elgood ــ فى كتابــه ــ مصر Egypt (١) يقولــه :

(أخــذ الشــباب فى مصر يضــنى بالعبوديــة السياسية ، وقد ظهر الى الوجود حزب وطنى ينادى بالاستقلال لمصر والسودان بزعامة مصــطفى كامل . مصر المتحدة غايته ومنحاه ، فاخذ يهاجم كرومر ومن لاذ به من الوزراء الخونة ، حتى كان حادث دنشواى وشــنق ، سبعة من الفــلاحين لقــاء موت ضــابط انجليزى فى دنشــواى صيف سنة ١٩٠٦ مما روع مصر .. وكان عزل كرومر ، وخلفه جورست ، وبعد وفاته سنة ١٩١١ خلفه كتشنر) .

كان مصطفى كامل حينذاك قد انتقل الى رحاب الخالدين ، وان مضى ــ الجود ــ فى اكاذيبه التى دونها فى كتابه هــذا ، فان نداء نبى الوطنيــة مصطفى كامل بقى جياشــا ، ليكون من بعد الشرارة التى أوقدت شعلة الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، بقيادة ــ سعد زغلول ــ كما يصفه ــ جوردن وترفيلد (٢) ــ فى كتابــه (مصر) عند المقارنة بينه وبين ما ذهب اليه لطفى الســيد ، فيقــول :

(مضى لطفى السيد فى دعوته لاستقلال مصر فى اتجاه مصطفى كامل (١٨٧٤ ــ ١٩٠٨) وقد وصف

---

(١) نقله الى العربيــة د. راشد البراوى ، وكنت قد قرأته قبل ان يقوم الدكتور راشد بترجمته . المــؤلف

(٢) Jordan Waterfield : Egypt : P.P. 118 — 131.

مصطفى كامل بانه مبعوث القومية المصرية ، وان ذهب لطفى السيد مذهبا آخر ، فحين طلب اليه مصطفى كامل ـ كما يقول : ـ جوردن وترفيلد ـ ان يقوم على تحرير اللواء صحيفة الحزب الوطنى ، كان لطفى السيد قد نزع عن هـذا الاتجاه ، واتجه بمصر الى احياء تاريخها القديم خالصا ، واحياء أمجادها القومية وابراز شخصيتها على مدى التـاريخ ، وهو ما يأتى عليه فى ـ قصة حياتى (٣) ـ وان بقى اكباره لنبى الوطنية ـ مصطفى كامل ـ لا يفيض ولا ينضب ، وهو ما يأتى عليه الدكتور هيكل فى مذكراته (٤) وأثار عجبه (وكان ذلك حين توفى مصطفى كامل ، لقد حزنت مصر لفقده أعمق الحزن ، خصوصا بعد الذى كان من نجاحه فى استصدار العفو عن المحكوم عليهم فى ـ قضية دنشواى ـ وزاد فى حزنها انه كان شـابا لم يتخط الرابعة والثلاثين من عمره ، فكان رجاؤها فيه وفى خدمته اياها ممتدا عظيما ، وكان لها فيه أمـل عريض ، لكن ما كان بينه وبين لطفى من خصـومة سياسية جعلتنى أعتقد ان لطفى لن يزيد على أداء الواجب الانسـانى فى رثائه ، وفى مجـاملة أسرته ، ومجاملة مصر فى فقده ، ومع اعتقادى هذا ، حرصت على ان أقف منه على حقيقة رأيه فى هـذه الفاجعـة القومية ، فذهبت غداة مشهد الزعيم الشـاب الى سراى البارودى ، وصعدت السـلم أريد أن استأذن

---

(٣) انظر ايضـا احمـد لطفى السـيد : اسـتاذ الجيـل للمؤلف ص ١٢٣ ـ ١٣٠ ، و ـ قصة حياتى للأستاذ أحمد لطفى السيد ـ كتـاب الهلال ع ١٢١ .

(٤) مذكرات : الجزء الأول ص ٣١ .

على لطفى بك كعادتى ، وكان عجبى شديدا حين رايت باب حجرته مفتوحا على مصراعيــه ، ورايت حاجبه سليمان لا يصــد احدا عن الدخول ، ودخلت الحجرة فرايت بها عــددا كبيرا غير مالوف من الزوار الذين احاطوا بالمنضدة الطويلة الممتدة امام مقعد لطفى ، وكان عجبى اشد من ذلك حين رايت استاذى ، وقد ارتدى السواد ، واشتمل عنقه برباط اسود كبير ، ووقف وكانه مفجوع فى اعز الناس عليــه ، واقربهم اليه ولقد وقفت مبهوتا امام منظر لم اكن اتوقعه ، ثم انسحبت ، ولم ارد ان اطيل السماع لحديث لم اكن آلف من قبل مثله ، لأنه لم يكن حديث المنطق الذى تعودته من لطفى ، بل كان حــديث مأتم تجرى فيه العواطف ادمعا ، او ما يشبه الأدمع ، فلمــا ظهرت الجريدة بعد ظهر ذلك اليوم ، رايت لطفى اول داع لاقامة تمثال لمصطفى كامل ، ولجمع التبرعات الشعبية لهذا الغرض الوطنى ، ولم يسعفنى منطقى الشــاب بما يرضاه عقلى تفسيرا لمــا رايت وما سمعت ، ولم استطع ان اقنع نفسى بان السياسة يمكن ان تبلغ من مخالفة المنطق هــذا المبلغ ، فكتمت ما فى نفسى حتى افضيت به الى لطفى بعد ايام ، فابتسم قائلا : اننى لا ازال شابا لأقدر مثل هذه المواقف) .

وتمضى السنوات ، ويتسنم الدكتور هيــكل قمة الفــكر والكتابة السياسية فى صحافة الأحرار الدستوريين : السياسة والسياسة الاسبوعية ، وتصبح السياسة الأسبوعية منارة للفكر والأدب ، وبعد سنوات يصــدر الدكتور هيكل كتابه ــ تراجم مصرية وغربية ــ وبالتحديد سنة ١٩٢٩ ، بعد أن مضى على وفاة

مصطفى كامل أكثر من عقدين من السنوات ، وتغير الكثير من صفحة الأحداث فى مسار التاريخ المصرى ويكتب الدكتور هيكل فى ترجمته لحياة مصطفى كامل فيقول :

(لم يكن عجيبا ان يحرك مصر من أقصاها الى اقصاها الحزن لوفاة الزعيم الشاب ، فقد جاء به القدر فى فترة من فترات حياة هذا الوطن حين بدات الأمة تنسى مظالم الماضى أيام حكم اسماعيل وتشعر بشدة وطأة الحكم البريطانى الذى قام على أساس من المصالح المادية وحدها ، فلم يعن الا بتخفيف الأعباء المالية ناسيا كل اعتبار غير تخفيض الضرائب ليخيم على البلاد الجهل ، وليكون الغرض الأسمى من التعليم خلق الموظفين ، وليشعر المصريون بافتقارهم للحاكم البريطانى ، وبضعفهم أمامه ، فذلك كله هين ويسير ما دامت الضرائب المرهقة ، وما دامت السخرة والكرباج قد ألغيت .

لذلك كان جزءا وفاقا أن تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم ـ مصطفى كامل ـ وكان حقا أن يرى قاسم أمين فى هذا الشعور .

ولعل ما يبرر دهشة الدكتور هيكل من موقف أستاذه فيما أصابه من أسى لوفاة الزعيم مصطفى كامل ، وان يكون أول من دعا الى تخليد ذكراه (لأن أبناء الريف من أمثالنا يفزعون اذا قيل لهم ان السلطان سيعود كما كان لصاحب السلطة الشرعية ، وأن الغز سيتولون الأمر من جديد ، وكانت حركة مصطفى كامل تؤيد السلطة الشرعية وتساندها ، وتقول بعودة

السيادة العثمانية على البلاد ، مما لا يروق لأعيان الريف ولأبنائهم) .

كان هذا بعض ما ذهب اليه المصريون فى تفسيرهم لاتجاه الزعيم مصطفى كامل ، ولواذه بالدولة العثمانية ، فى حملته على الاحتلال البريطانى مصر ، ولم يتسن للكثيرين ادراك هذا الاتجاه وما وراءه من غاية ، فلم يكن الاحتلال البريطانى لمصر يقوم على أساس شرعى ، اذ بقى الانجليز يعترفون بالسيادة العثمانية على مصر ، وان احتلالهم مصر لا يرمى لغير اعادة النظام وتأمين البلاد مما ادعوه من خلل النظام الداخلى ، وان كان للسياسة الدولية أثرها البالغ فى اتجاهات السياسة البريطانية نحو مصر ، وكان للاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا أثره البالغ فى اتجاه سياسة كل من الدولتين انجلترا وفرنسا فى تلك الساحة ـ ساحة البحر المتوسط ـ وكان محور الصراع بين الدولتين المتنافستين ، ففى هذا الاتفاق الذى تم بين الدولتين المتنافستين سنة ١٩٠٤ ، أطلقت فرنسا بموجبه يد انجلترا فى مصر مقابل اطلاق يدها فى مراكش .

وحين اتخذ مصطفى كامل من وضع الدولة العثمانية فى مصر ، واعتراف الانجليز بهذه التبعية وتسليمهم للسلطان العثمانى باختيار الخديو ، وهو ما كان ، وما كان ليتم دون تدخل من الدولتين المتنافستين على النفوذ فى مصر ، انجلترا وفرنسا ، فحين رأى السلطان العثمانى أن عزل اسماعيل الغاء لامتياز وراثة العرش ، وعرض تولية الأمير عبد الحليم ، فعارضت انجلترا وفرنسا لأنهما لا تعرفان عنه خيرا أو شرا ، بل لأنهما تحسنان الظن بتوفيق ، وتمضى الأيام سراعا ويلوذ الخديو توفيق بحماية انجلترا وفرنسا ، ولكنه لم ينس لفرنسا تأييدها لعرابى

ضده فى ظروف كثيرة كما كانت أكثر تأييدا لولاية حليم باشا دونه ، وكان أن آثر بريطانيا بالولاء دون فرنسا ، وترك لبريطانيا الحبل على الغارب ، توجه وتحكم كما تشاء ، وكان لها أخلص المخلصين ـ ولم يكن له فى الحوادث ـ كما يقول الدكتور هيكل فى ترجمته لحياته ـ يد ولا تصريف ـ وبقى كذلك الى أن توفى فى سنة ١٨٩٢ غير محمود ولا مذموم .

وكان مصطفى كامل حينذاك فى زهوة الشباب ، وقد اوفى على العام الثامن عشر من عمره ، وبدأت اتجاهاته الوطنية تسفر عن نفسها قبل ذلك بسنوات ، وبالتحديد (سنة ١٨٩٠ ـ كما يقول الرافعى ـ ولم يزل بعد فى المرحلة الثانوية من دراسته ، ففى المدرسة الخديوية أسس ـ جمعية الصليبة الأدبية ـ واختار لها أعضاء من بين أصدقائه فى التلمذة ممن توسم فيهم الفضل والذكاء والفطنة ، وقد نمت الجمعية ولما يمض على تأسيسها أكثر من ثلاثة اشهر حتى كان فيها نحو سبعين عضوا) .

وفى هذه الجمعية وامثالها بدت الرغبة سافرة فى مقاومة الاحتلال البريطانى وان بدت ـ كما أقول ـ صورة للحيرة التى تنتاب الراغبين فى العمل الوطنى دون أن يتبينوا طريقة أكثر ايجابية ، وان دلت على الرغبة فى مقاومة الاحتلال ، دون أن تسفر عن عمل ايجابى .

ولعلنا نستجلى تلك الرغبة فى فرحة المصريين بتولية الخديو عباس الثانى ولعلها فرحة لا تسفر عن التعلق بالخديو الشاب قدر ما تسفر عن الفرحة بذهاب أبيه الذى وقف الى جانب الاحتلال ، وسلبه الاحتلال كل حقوق الولاية الفعلية ، ولعل الشعب قد ادرك باحساسه المرهف أن الخديو الشاب لا يمالىء الاحتلال ، ولا ينوى التنازل عن سلطاته له . فأقبل عليه يعلن

فرحته به ، وتظهر تلك الفرحة ، ولما تمض بضعة أيام على توليته حين توجه لصلاة الجمعة فى المسجد الحسينى فقد حدث اثناء سير الموكب الخديوى مظاهرة مؤثرة ، اذ تقدم الطلبة وغيرهم من المحتشدين بالسكة الجديدة نحو العربة الخديوية ، وأقصوا جيادها وجروها بأنفسهم ، وابدى الشعب المحتشد داخل المسجد وخارجه حماسة لا توصف وقد ظهر على سموه عميق تأثره وارتياحه لهذه الروح (٥) .

ولا يبدو ذلك غريبا من المصريين ، فان ما كان من فرحتهم بولاية الخديو عباس حلمى الثانى خلفا لأبيه توفيق الذى آب بغضب المصريين وكراهيتهم هو ما كان من فرحتهم بالملك فاروق خلفا لأبيه الملك فؤاد . وقد آب بكراهية الشعب لنزعته الاستبدادية ، وموقفه من الزعيم سعد زغلول .

وكانت البداية حين اتجه الخديو عباس الى الشباب ، فاخذ يستقطب النابهين منهم ، فما كان يأمل خيرا فيمن شهدوا مظالم جده واستخذاء أبيه ، ولا فيمن عاصروا الثورة العرابية ، وتشيعوا لها وكانوا فى جانبها أو لم يتشيعوا لها ونأوا عنها .

ولا نجد أصدق ممن تناولوا تلك الفترة وما بعدها من الدكتور هيكل سواء فى مذكراته أو فى تراجمه ، فلا نراه يشير الى ما كان من حفاوة المصريين فى السكة الجديدة وفى الأزهر ، مما أشار اليه تفصيلا — احمد شفيق باشا فى مذكراته — فشفيق باشا من رجال السراى ، والأسرة المالكة ، فاذا لم يكن قد

---

(٥) أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن : الجزء الثانى سنة ١٨٩٢ — ١٩٠٢ .

عرض او اشار الى لقاء الخديو عباس بالأزهر والسكة الجديدة ، وان لم يفتـه أن يعرض للخـديو عبـاس حلمى الثـانى حين لاذ بسياسة الوفاق ، وتنكر لمـا كان يدعو اليه من قبل ، حتى كان عزله بعد فرض الحماية البريطـانية على البلاد فى مستهل الحرب العالمية الأولى وبداية عهد جديد انتهى بثورة سنة ١٩١٩ ، وزعامة سعد زغلول .

ولعل اصدق من وصف الزعيم مصطفى كامل ، كان الخديو عباس فى مذكراته التى نشرت فى حياته ، ومنع نشرها فى مصر ، حين بدات صحيفة المصرى الوفدية فى نشرها . اذ يقول : (ان مصطفى كامل لم يكن ينتمى الا لذاته ، وهو ما يعنى انه لم يكن من شيعته الا بقدر ما وجد فيه من تأييد لاتجاهاته الوطنيـة ، ولكفاحه فى سبيل مصر ، لتصبح اغنيته الشجية ، وليكون خير ذاكر لها وممجد لاصالتها على مدى التاريخ) .

١/٣ ـ بين السياسة والدبلوماسية

جمع الزعيم مصطفى كامل بين السياسة والدبلوماسية ، وفرق ما بينهما أن ـ السياسة ـ Politics هي ما يتعلق بسياسة الدولة فى شئونها الداخلية والخارجية ، والدبلوماسية Diplomacy هى القدرة أو المهارة التى تعالج بها الدولة ، او المفوض بها شئونها الخارجية ، وعلاقاتها بالدول والمنظمات والهيئات الخارجية .

وقد كان مصطفى كامل سياسيا من الطراز الأول ، وكان سلاحه المعرفة والدراسة التى تواتيه بالحكم الناضج ، وتهديه الى الطريق القويم ، فى علاقاته الداخلية ، والخارجية ، ففى علاقاته الداخلية لابد وان يلم بطبيعة شعبه افرادا وجماعات ليعبر عن ارادتها فيما ينشد وفيما يريد ، فاذا نجح فى ذلك كانت له القيادة والزعامة فى محيطه بل وفى خارج محيطه ، فلا يعلو صوت على صوته فى المجال الدولى .

وقد ادرك مصطفى كامل ذلك منذ البداية ، فاقبل على الدراسة والمعرفة فى شتى مناحيها ، وبالذات ما يتصل بقومه أو محيطه ، وكانت أول دراسة فريدة له فى هذا الجانب ، كتابه عن ـ المسالة الشرقية ـ وقد طبع بمطبعة الآداب بمصر

سنة ١٨٩٨ ، ولم يكن قد جاوز الرابعة والعشرين من عمره ، وهو بحث يعجز عنه كبار الدارسين فى المـامه بالأحداث ، ومعرفة خوافيها ومداخلها ، بما لم يتسن لأحد من الباحثين من بعد ان يلم بخوافى تلك الفترة ومناحيها واتجاهاتها حتى وقتنا هـذا ، وفى كتابه هذا ، يقول :

(وقد وهب الله الدولة العثمانية سلطة عالية ورهبة عظيمة حينا طويلا من الزمـان . فاخضعت لسلطانها الدول والأمم ، وارهبت بقوتها وعظمتها كل قوى وكل عظيم ، ورفعت رايتها الهلالية الجليلة على أصقاع شاسعة واقطار واسـعة فابقت .. فتوحاتها وانتصاراتهـا فى نفوس الأمم المقهورة بغضـاء كامنة وعداوة لدودة ، فكان ذلك السبب الأول فى الحروب العديدة التى وجهت ضدها ، وأقيمت فى وجهها .. واذا دققنا النظر فى سبب العداوة المشهور وهو مسألة الدين ، وجدنا أن الدولة العلية ، هى الدولة الوحيدة فى دول الأرض التى عاملت رعاياها الذين يدينون بغير دينها بالتسامح والتساهل والاعتدال فقد اتبعت أوامر الشرع الشريف ، وتركت للمسيحيين حرية دياناتهم وعـاداتهم وتقـاليدهم واحترمت عقـائدهم كـل الاحترام ، فعاشوا طويلا ممتعين بهذه الحرية ، على حين أن مسيحيى أسبانيا قتلوا المسلمين لانهم مسلمون وهتكوا أعراض نسائهم وحرمة بيوتهم ، وما رحموا انسانا) .

(ولم تكتف الدولة العلية حماها الله بحسـن معاملة المسيحيين ، واحترام اديانهم وعقائدهم ، بل

عاملتهم كأعز أبنائها المسلمين ، ولم تميز بين هؤلاء وبينهم ، وسلكت مع الكل طريق المساواة ، وعينت الكثير من المسيحيين فى المناصب السامية والوظائف العالية ... وبقاء المسيحيين حتى اليوم فى الدولة العلية أكبر شاهد على اعتدالها الدينى فى الماضى وفى الحاضر ، بل بقاء الجنسيات المختلفة كالبلغار ، والصرب ، واليونان ، وغيرهم دليل ساطع وبرهان قاطع على أن الدولة العلية احترمت من نفسها وبمحض ارادتها دين الذين وقعوا تحت سلطتها ،ولم تقهراحدا على اعتناق الدين الاسلامى ، ويعترف الكتاب والمؤرخون جميعا ، بل ويعترف كل انسان فى الوجود مجردا عن الفرض الأعمى أن الدولة العلية كان فى قدرتها يوم كانت أقوى دولة فى الأرض ان تجبر كل المسيحيين فى بلادها على اعتناق الاسلام ، أو أن تطردهم من أراضيها اذا خالفوا رغبتها ، ولكنها احترمت الشرع الشريف فاحترمت الدين المسيحى وأصحابه) .

ويعرض مصطفى كامل فى كتابه هذا لما كان من اختلاف المذاهب المسيحية فى اوربا ، وما جره من وبال على المسيحيين انفسهم ؛ فقد اقامت روسيا المسألة الشرقية باسم الدين الأرثوذكسى ، فعملت لاخراج الرومانيين ، واليونانيين ، والصربيين ، والبلغاريين ، واهل الجبل الأسود من تحت سلطة الدولة العلية باسم الدين الأرثوذكسى .. وقد اصبحت الكنائس الأرثوذكسية غير معتبرة عند البلغاريين والصربيين ، والنزاع الدائم بين هذه الجنسيات المختلفة فى مقدونيا ، يبين جيدا درجة عداوتها لبعضها ، ودرجة الخطر الذى صارت اليه بلاد

البلقان بسبب مسألة الجنس والدين ...) يمضى مصطفى كامل فى تحليله للأحداث الدولية ، وما كان من حروب بين روسيا وتركيا ، فيقول :

(وقد شعرت روسيا كذلك بعد حرب سنة ١٨٧٧ انها لا تستفيد من حروبها مع تركيا ، ما يعوض عليها خسائرها العظيمة فى هذه الحروب ، ففضلت سياسة مسالمة الدولة على سياسة العداء ، فكان هذا التاريخ مبدأ للشقاق والعداوة بين الدولة العلية وبين انجلترا وقد ظهرت هذه العداوة بمظهرها التام الواضح بعد احتلال الانجليز لمصر (١) ، حيث راى جلالة السلطان فى هذا الاحتلال وفى خطة الانجليز فيه وفى خداعهم لجلالته ما علم منه أن الانجليز لا صديق لهم وانهم أكبر أعداء تركيا ، وأن صداقتهم القديمة المزعومة لم تكن الا حجابا ستروا وراءه عداوتهم المرة ، وأطماعهم الشديدة ضد دولة آل عثمان ...) .

(ومن ذلك الحين عملت انجلترا على دس الدسائس ضد السلطنة السنية فى كل أنحاء المملكة المحروسة ، فأهاجت الأرمن ، والكريديين ، والدروز ، ولكن دسائسهم لم تأت بغير نتيجة واحدة ، وهى اضعاف هذه العناصر التى اتخذتها انجلترا — انكلترا — آلات لها ، واظهار قوة الدولة العلية أمام الملأ كله .. وقد حسب الانجليز انهم يبلغون متمناهم فى مصر

---

(١) ورد لفظ الانجليز فى النص بلفظ الانكليز — وانجلترا بلفظ انكلترا وهو ما كان سائدا حينذاك ، وغير النطق والهجاء السائدين الآن .
المؤلف

وادى النيـل ، ويضعون بذلك أيديهم على الحجر الأسـاسى للخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانيـة ، ولكن مما لا ريب فيه ان نصيبهم فى مصر الفشل عاجلا أو آجلا) .

وكانت تلك هى البداية فى كفاح مصطفى كامل السـياسى حين ظن فى الدولة العثمانية اللواذ والنجدة ، وانهـا يمكن أن تتصدى للاحتلال البريطـانى ، وتحمل عليه وتثير العالم الأوربى ضده ولا سيما فرنسا التى ادانت الاحتـلال البريطانى وبقيت تحمل عليه ، وافسحت المجـال لدعوة مصطفى كامل هـذه ، وحملته عليه ودعوته لانقاذ مصر من الاحتلال البريطـانى ، حتى كانت البداية تلك اللوحة الفنية البديعة ـ كما يصفها الدكتور هيكل (٢) (وتمثل فرنسا واقفة فى لوح نصر قـام على نصب رفيع يجرى النيـل من تحتـه ، وقد قامت مصر على شاطئه مقيـدة يحرسها جندى بريطانى ، وتقدم جماعة من المصريين الى فرنسا يستنجدونها لتفك اسار وطنهم ، ونقش على اللوحة بالعربيـة والفرنسية هذه الأبيات) :

افرنسـا يا من رفعت البـلايا
عـن شـعوب تهزهـا ذكـراك

انصـرى مصـر ان مصـر بسوء
واحفظى النيل من مهـاوى الهـلاك

وانشـرى فى الورى الحقـائق حتى
تجتـلى الخـير امـة تهـواك

ومن هـذه اللوحة طبعت الوف وزعت فى انحـاء العـالم ، ونشرت فى كل صحيفة بعد ان قدمها مصطفى كامل بعريضـة الى

(٢) تراجم مصرية وعربية : مصطفى كامل باشا ص ١٢٩ ـ ١٥٩ .

رئيس مجلس النواب الفرنسى ، نيابة عن المجلس ، ومما جاء فى هذه العريضة قوله :

(جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة ـ فرنسا ـ التى حررت عدة من الأمم ، فهل تجاب الى استغاثتها وتضرعها) ؟

(وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها فى العالم الاسلامى الواثق بها ؟ على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب الأمم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها .. فلتحيا فرنسا محررة الأمم) .

وقد جمع مصطفى كامل فى هذا بين القدرتين : القدرة السياسية والقدرة الدبلوماسية ، مما يسفر عن قدرته السياسية وابرزها ويبرزها ، ما كان من استغلاله للعلاقات الدولية التى تسيطر على اتجاهات السياسة الأوروبية فاتخاذه فرنسا مجالا لدعوته لأنه يدرك أن فرنسا غير راضية عن الانسياح الانجليزى دونها فى افريقيا وفى البحر المتوسط ، ولعله أراد أن يذكر فرنسا بما كان من موقف الانجليز حيال الثورة العرابية واستئثارهم بالأمر دونها فى وادى النيل ، فذكر انه موفد من قبل الحزب الوطنى المصرى والحزب الوطنى على ما نعرفه نحن اليوم وعلى ما خلفه مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ ، لم يكن له وجود فى سنة ١٨٩٥ ، لكن الحزب الوطنى هو الاسم الذى كان يطلق على العرابيين ، واذن فهو يذكر الفرنسيين بهذا الحزب الذى تغلب عليه الانجليز وحدهم ، حين تنحى الفرنسيون عن وادى النيل (٣) .

---

(٣) دكتور هيكل : تراجم : مصطفى كامل باشا ص ١٣٨ .

وتتجلى قدرة مصطفى كامل السياسية ، فضــلا عن قدرته الدبلوماسية فى تلك الفترة ، حين اتخذ من أوربا ميدانا لدعوته ضد الاحتــلال البريطــانى لمصر ، ففى تلك الفترة كانت أوربــا تمور بالصراعات السياسية والتنافس الاستعمارى ، واحتــدم الصراع بعد ظهور المــانيا ، وقيــام بسمارك على أمورها (وقد رأى فى فرنسا عدو بلاده العنيد الخطير ــ كما يقول ــ هـ.أ. فشر فى كتابه ــ تاريخ اوربا فى العصر الحديث ــ ١٧٨٩ ــ ١٩٥٠ (٤) الذى راى الغل يأكل قلبه ، والذى يحب عدم الركون اليه قط، وينبغى اضعافه واقصاؤه على الدوام من حظيرة جيرانه الأوربيين، وقد خدمت منطقة ساحل افريقية الشمالى ، التى غدت فى وقت سريع مطمعا للاستعمار الأوربى ــ خدمت هــذه المنطقة اغراضه كأداة لدبلوماسيته المعادية للأمة الفرنسية) فانه شجع فرنســا على امتلاك تونس كى تتشاجر مع ايطاليا ، وشجع انجلترا على امتلاك مصر كى تتشاجر مع فرنسا .

وكان الاتفاق الودى ــ ١٩٠٤ ــ ما بين انجلترا وفرنســا كما كانت سياسة بسمارك فى قيادته المــانيا ، لها تأثيرها البالغ والبارز على سياســة مصطفى كامل ، واستغلاله البارع للسياسة الدولية فى دعوته ضد الاحتــلال البريطانى ، وتحرير مصر من نيره ، وقــد وجد فى المــانيا من الحفــاوة والترحيب ما يسر له دعوته ضد الاحتــلال البريطانى ، فكتبت جريــدة ــ برليترتا جبلاط ــ تقول :

(مر على برلين فى هــذه الأيام أكبر المشتغلين بأمر تحرير مصر من الاحتلال الأجنبى ، وهو الوطنى

---

(٤) الفصل ٢٥ بسمارك والرايخ الالمــانى : ترجمة استاذنا احمد نجيب هاشم ووديع الضبع .

الشهير مصطفى كامل ، الذى يكتب ويخطب فى اوربا منذ عامين دائب السعي والعمل والجهاد فى سبيل مشروعه الشريف ، والآن ، قد جاء برلين لاستمالة شعبها الي وطنه الأسيف ، ومصطفى كامل هذا هو شاب فصيح جذاب ، اجتمع به أحد محررى جريدتنا ، وتحادث واياه فى المسألة المصرية ، وكان الحديث باللغة الفرنسية التى يتقنها كل الاتقان) (٥).

ومضى مصطفى كامل فى تجواله فقصد النمسا ، ونزل عاصمتها فيينا يوم ١٩ اكتوبر سنة ١٨٩٦ ، على موعد سابق مع ـ جوزيف بويوسكى ـ أحد كبار اعضاء مجلس النواب النمسوى ، وقد اراد أن يجتذب النائب الكبير الى صفه فى دعوته ضد الاحتلال البريطانى لوطنه مصر ، ولقى منه كل تأييد ؛ وكان صريحا حين قال له :

(وانك تسألنى ايضا فى كتابك عن رايى فى السياسة التى يجب ان يسلكها التحالف الثلاثى تجاه المسألة المصرية ، اقول لك ان المسألة المصرية لا تهم دول التحالف مباشرة ، اذ أن سياستها تتوقف على ما تسلكه انجلترا فى المستقبل) .

ومضى مصطفى كامل فى تجواله بالنمسا ، وقابل ـ المسيو شلومكى ـ رئيس مجلس النواب النمسوى ، وكبار الصحفيين ، وشرح لهم المسألة المصرية وجهاد مصر فى سبيل استقلالها ، فاكتسب عطف الكثيرين منهم نحو مصر ، ونشرت له مجلة ـ

---

(٥) الرافعى ـ عبد الرحمن بك : مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية ص ٧٤ ـ ٧٧ .

اكسترنا جبلاط ـ حديثا قال فيه : (اننا متألمون من الاحتلال البريطانى لأنه مسقط لكرامتنا ، باعتبارنا أمة ، فضلا عن كونه جارحا لعزة بلادنا حسا ومعنى ، فاننا أمة تعلى من محبة الوطن وتعتز بوطنها اعظم الاعتزاز ، وندرك تماما ان بلادنا ما دامت تحت النير البريطانى ، والاحتلال الجائر ، فلا نستطيع ان نقوم على امورنا بأنفسنا ، فلا حق لنا ان نحسب انفسنا امة من الأمم ، لها حقوقها المعترف بها والتى يرعاها ويقدرها الآخرون ، ولهذا نرغب من صميم افئدتنا ان نتحرر من الاحتلال البريطانى ، ليكون لنا مقامنا فى المجتمع الدولى وكياننا بين الأمم المستقلة) (٦) .

ولا يفوت مصطفى كامل أن يستثير فى دعوته خلال جولته هذه الأوربية مصالح الأوربيين فى استقلال مصر وتحررها من الاحتلال البريطانى مؤكدا سبيل السلم دون الثورة ضد الاحتلال ، فاننا ـ كما يقول ـ قوم عرفنا بالدعة وحب السلام ولا ندين بالعنف كما نبغض المذابح والجرائم ، ونفخر بأننا أمة بزغ منها فجر الضمير ، وكم لأوربا من مصالح لها فى مصر تطيح بها الثورة ويودى بها العنف فان الأمة اذا ثارت ضلت السبيل وفقدت الرشاد ، فلا تميز بين الانجليز وغيرهم من الأوربيين ، اذ نقول وقتئذ : لقد تظاهرت أوربا ضدنا بموافقتها على الاحتلال ، فمن الواجب اذن أن نكون ضدها ، وليس معها ، لذلك اخترنا سبيل السلام دون الثورة التى نكرهها بفطرتنا ، ورفعنا الصوت بمطالبنا الى مسامع أوربا المتمدنة ، وقد آذنت الساعة التى تقف فيها اوربا المتمدنة الى جانبنا فى طلبنا جلاء الانجليز عن مصر .

---

(٦) The Public Record Office : London : Reader's Ticket : Issued Aug 82, EL-NAGGAR PROF — H.F.

وفى هذا كان مصطفى كامل يمثل الدبلوماسية بأجلى معانيها، كما يمثل القدرة السياسية فى التكيف معها ضد الاحتلال البريطانى وجلاء الانجليز عنها وفقا لعهودهم عند احتلالهم مصر فى أعقاب الثورة العرابية .

٤/١ ــ مصر والدولة العثمانية

كانت الدولة العثمانية هواه ومنتجعه ، وهو ما يسفر عنه فى كتابه ــ المسألة الشرقية ــ كما سبق القول ، ولم يكن قد زار تركيا بعد ، حتى اذا رأى أن الدولة العثمانيــة صاحبــة الولاية السياسية على مصر وقد بقيت مصر رغم استقلالها الذاتى منذ قام عليها محمد على ، تدين بالتبعية للدولة العثمانيــة . ولا ينكر الاحتلال البريطانى هذه التبعية .

(ولم يكن معقولا ــ كما يقول الرافعى ــ أن يطوف مصطفى كامل بعواصــم أوربا ليكسب الأنصــار والأعوان لقضية مصر ولا يذهب الى الآستانة عاصمة تركيا ، لأن تركيا كانت فى عهــد الاحتلال الانجليزى ، الدولة الوحيدة التى لا تفتأ تطالب انجلترا رسميا بالجــلاء عن مصر ، وقد أنفذت الى مصر مندوبا ساميا عنها هو ــ احمد مختار باشا الغازى ــ مهمته مطالبة الانجليز بالجلاء ، وكان مختار باشا يعلن بانه احتجاج حى على الاحتلال فلا غرابة أن يستعين زعيم الجــلاء ــ ويعنى مصطفى كامل ، بتركيا ، كما أراد أن يستعين بفرنسا وغيرها من الدول الأوربيــة على احراج مركز الاحتلال) .

فصد اذن الاستانة ــ كما يقول الرافعى ــ لأول مرة عن طريق فيينا ، وبودابست ، ونزل بفندق ــ بيرا بالاس ــ ودعى

لصلاة الجمعة فى الجامع الحميدى حيث يصلى السلطان ، واتصل الود بينه وبين السلطان ، وأعرب له السلطان عن اعجابه ، وأهداه ـ علبة سجاير من الذهب مرصعة بالماس ـ واقام فى الآستانة من ٢٧ أكتوبر حتى ١١ نوفمبر .

وأشارت صحيفة ـ فرنكفورتر الألمانية الى زيارته بقولها :

(ولقد حضر الى الآستانة منذ أيام ذلك الخطيب المصرى الشهير الناطق بلسان المصريين ، والمعبر عن رغباتهم وهو ـ مصطفى كامل ـ الخطيب الشاب الذى خلق ليكون خطيب قومه ، لما وهبه الله من القوة والغيرة وما هو عليه من الفصاحة الدافقة والقدرة على التأثير فى السامعين ، وما عرف عنه من اعزاز ومحبة لوطنه ، فام يصل الآستانة ، ويلتقى برجال السياسة حتى سعى اليه الجميع ، ولقى من حفاوة المابين السلطانى ما هو خليق به من اكبار وتكريم ، وكان لقاؤه برجال السياسة فى باريس وبرلين ، وفيينا ، وأحاديثه للصحف ، وقدومه بعد ذلك الى الآستانة حاضرة الخلافة العثمانية مما لا يغيب عن عقل فطن) .

ويمضى محرر ـ فرنكفورتر كورييه ـ ليقول :

(وقابلت ذلك الضيف الجليل وجرى الحديث بيننا طويلا عن أحوال مصر والشرق فوجدته ، الى جانب ما رأيته فيه من الدعة واللطف ، سعة الفكر ، والالمام الواسع بكل الجوانب السياسية ، ويتكلم الفرنسية كأحد نجبائها ، ويلم بالعادات والطبائع الأوربية الحميدة الى جانب الطبائع والعادات الشرقية

الكريمة ، الى جانب أحاديثه وخطبه التى تبقى عالقة فى نفوس سامعيها وعقولهم : فلا ينسونها ولا تغيب عن أسماعهم) .

وفى لقاء مع مراسل ـ نيويورك هرالد تربيون ـ يسأله عن المسألة المصرية ، والمسألة الشرقية ، وعن احساس المصريين تجاه الانجليز ، فيقول :

(ان جميع المصريين كارهون للاحتلال الانجليزى وهم يعتقدون الآن ان ما ترمى اليه السياسة البريطانية امتلاك كل وادى النيل ، وكان أن نزعوا من انفسهم كل ثقة بوعود الانجليز) .

وسأله المراسل :

(ماذا يبغى الوطنيون المصريون او الحزب الوطنى فى مصر) ؟

ويجيب مصطفى كامل :

(ان الحزب الوطنى فى مصر هو عبارة عن الأمة بأسرها تجاه الاحتلال ، فرغبته هى رغبتها ، وعلى رأسها تحقيق الجلاء عن مصر دون اثارة ، بما يكدر الأمن العام) .

وكان ذلك الحديث الذى جرى فى الآستانة مع مراسل ـ نيويورك هرالد تربيون ـ عام ١٨٩٦ ، ولم يكن الحزب الوطنى ، كما أقامه ووضع دعائمه وخط سياسته للمستقبل قد قام بعد ، ولم يعلن مصطفى كامل عن قيامه الا بعد خطابه فى مسرح زيزينيا مساء الثلاثاء السابع من يونيو سنة ١٩٠٤ ، تناول فيه الموقف

السياسى لمصر وواجبات المصريين ، وكان الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنســا فى الثامن من ينــاير من نفس العــام ، واقرت المــانيا والنمسا هذا الاتفاق ، وبهــذا الاتفــاق ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ فى سيرته لمصطفى كامل : (انهــار ركن من أهم اركان سياسة مصطفى كامل ، بل انهار مجهوده منذ سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٠ حين كان كل عمله التجوال فى عواصم أوربا لاستفزاز دولها كى يقنعوا انجلترا تنفيذ وعودها بالجلاء عن وادى النيل).

ويرى الدكتور هيكل : ان هــذا الحادث صــدم المصريين يومئذ صدمة قوية ، فرنسا هذه التى علقت مصر عليها الآمال ، فرنسا التى رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراها ، فرنســا محررة الأمم ومعلنة حقوق الانسان والمنادية بالحرية والاخــاء والمساواة ، هى التى تمضى الاتفــاق الودى تؤيد به سياســة الاستعمار ، فتترك انجلترا تطلق يدهــا فى مصر ، مقــابل ترك انجلترا اياها تطلق يدها فى مراكش !! يا لخيبة الأمل ! وأين اذن محل الرجاء) .

وكان حادث فاشودة صورة بينة لخطل السياسة الفرنسية وترددها بل وتفاهة وسائلها ، حين تقدم فتخطىء ، وحين تنوى يعوزها التخطيط السليم ، كما تعوزها القدرة على التنفيــذ ، ويبدو ذلك بصــورة بينة فيما كان منها فيما عرف ــ بحــادث فاشــودة ــ وقد راودتهــا الفــكرة ، فكرة احتــلال فاشــودة سنة ١٨٩٣ ، وعهدت بها الى أحد قوادها ، ثم عدلت عنهــا ، حتى عادت الى التفكير فيها ســنة ١٨٩٦ ، وعهدت بتنفيذهــا الى ــالكابتن مرشــان ــ فمضى اليها على راس قوة من تســعة ضباط من الفرنسيين ، ومائة وعشرين جنديا من أهل السنغال لا يدينون بأى ولاء لفرنسا أو لانجلترا يشق طريقا لا عهد له به ،

وسط مجاهل لا علم له بها ؛ حتى وصـــل اليها بعد عامين من بدء مسيرته ، ورفع عليها العلم الفرنسي ، ليجد كتشنر سردار الجيش المصرى على رأس الف وثمانمائة جندى مصرى ومائــة جندى بريطانى ، ورفع عليها علم مصر ، وأمر مرشان بالانسحاب منها وكان انسحابه طاعــة لأمر كتشنر يوم الحــادى عشر من ديسمبر سنة ١٨٩٨ .

ويبدو أن فرنسا لم تكن ترمى من وراء حملتها على فاشودة غير تنبيه الانجليز الى ما يمكن أن تثيره من عقابيل أمام توسعها فى افريقيــا ، وليكون لها نصيب فى تلك الساحــة التى تنوشها مطامع الاســتعمار الأوربى من قبل ومن بعد ، ولم يدر فى خلد الحكومة الفرنسية ــ كما يرى الرافعى ــ اثارة المسألة المصريــة برمتها واجبار انجلترا على تنفيذ عهودها فى الجلاء عن مصر) .

ولم تكن ثمة (أزمة سياسية بين انجلترا وفرنسا) كمــا يقول ، وهو ما أدركه مصطفى بحسه السياسى الفريد ، فاتجه بتفكيره الى وسائل اخرى (وكان الاتجاه الى الباب العالى ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ بعض هذه الوسائل) .

وان كان اكثر ما اهم مصطفى كامل مصر ومستقبل مصر واعداد المصريين لمواجهة الاحتلال البريطــانى ، واستقلال مصر استقلالا لا شائبة فيه على يد ابنائها واتخاذ كافة الوسائل للنهوض بهم وارتقائهم بداية من التعليم الحديث الى بث الأمل فى نفوسهم واحســاسهم بكيــانهم القومى ، ومكــانتهم فى عــالم عــريض ، واستهوائهم الى ما ينفعل به وجدانهم وتثور له حميتهم من ولاء للدولة العثمانية ، دولة الخلافة الاسلامية ومازالت الرباط الأكبر لوحدة المسلمين والعالم الاســلامى ، وهى الدولة التى وجد فيها اقباط مصر بالذات المــأوى والرعاية والحب الكامن فى أعماقهم

من أعماق السنين لا يميل ولا يحول . ومن قبيل ذلك ما كان من فشل الانجليز فى ايقاع الفرقة بين المسلمين والأقباط ، حين دبروا اغتيال بطرس باشا غالى ، وعقد بعض الأقباط المؤتمر القبطى تعصبا لمقتل بطرس غالى ، وعقد المصريون أقباطا ومسلمين المؤتمر المصرى ، وعادت الوحدة وفشل الانجليز فيما ارادوا .

وكثيرا ما تخفى ــ كما أقول وقائع التاريخ ــ حقائق تغيب على الكثيرين ، وتعجم دوافعها على الناس ، فالواقعة أية واقعة هى الصورة المرئية لأحداث التاريخ ، الا أن الواقعة لابد وان يكون وراءها دافع ، وهو ما أسميه ــ الحقيقة ــ التى تكمن وراء الواقعة ، وهى فى الواقع الدافع لها ، والتى ادت الى وقوعها .

وحين نحكم على أحداث التاريخ ، أو وقائعه ، لابد وان نبحث عن دوافعها ، وغالبا ما يبدو الدافع الحقيقى بعيدا تماما عن الدافع الظاهر أو البادى فى تفسير الواقع حين وقوعه ، فاذا قيل ان ما حمل ــ ابراهيم ناصف الوردانى ــ كما جاء على لسانه فى التحقيق هو ــ ما عده خيانة من تصرفات بطرس باشا غالى ، واخصها توقيعه اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ ، ورياسة المحكمة المخصوصة فى حادث دنشواى ، واعادة قانون المطبوعات، ثم سعيه فى انفاذ مشروع مد امتياز قناة السويس ــ مما ذكره الرافعى ــ الا اننا اذا ادركنا أن بريطانيا بعد اشتداد الحركة الوطنية التى قادها مصطفى كامل ، وما كان من تفتح الحركة الفكرية والثقافية والاجتماعية على يد لطفى السيد ، وقاسم أمين واضرابهما ممن مهدوا لهم الطريق أمثال ــ رفاعة رافع الطهطاوى ، وعلى مبارك ، ومن قبل عمر مكرم ، كان كل ما يهمها أن تئد هذه الحركة الفكرية والوطنية وتجهضها فى مهدها ، وكانت البداية ما كان من سياسة الوفاق مع الخديو عباس حلمى الثانى .

واصدار القوانين التى تعوق وتطارد زعماءها ، ليتم هـذا كله على يد رئيس وزراء يدينه المصريون جميعا أقباطا ومسلمين ، وكان اشد ما يدين بطرس باشا غالى رئاسته المحكمة المخصوصة التي أصـدرت حكم دنشواى ، وكرهه المصريون أشد الكراهية ، فاذا كان قد تولى رئاســة الوزارة عام ١٩١٠ ، فلاشـك ان الانجليز قد دفعوا به الى هـذا المنصب ، وهم يعلمون ما يمكن ان يناله : ولعلهم قد مهدوا الطريق لاغتياله لتفرقة كلمة الأمة ، واثارة التعصب الدينى ، ولم يكن بطرس غالى -- فى الواقع -- متعصبا لأبناء طائفته تعصب عداوة لأغلبية البلاد الدينية ، يؤيد ذلك ، انه لمـا انشأ الجمعيـة الخيرية القبطيـة - كمـا يقول الدكتور هيكل -- فى سيرته ، كان من بين الخطباء يوم افتتاحها ، الأستاذ الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد النجار ، وعبد الله النديم ، وغـيرهم ، وانه كان بعد ذلك عظيم الوفـاء لكثير من اصدقائه المسلمين ، متصل البر بكثير من العائلات الاسـلامية من ذلك انه كان أول من ذهب الى المغفور له الشيخ سليم البشرى على اثر اقالة الخديو اياه من مشيخة الأزهر يسأله ما يستطيع أن يقدمه له من خدمة ، وكان كثيرا ما يقضى حاجات أفراد من المسلمين من غير ان تكون له بهم كبير معرفة ، كما كان يصـلهم صلة ابناء طائفته -- وهو امر -- كما نرى لا عيب فيه ولا عوار ، فلم يكن للأقبـاط فى تلك الفترة وما قبلهـا الحق فى الوظائف العامة مثل ما للمسلمين لا عن تعصب ، ولكن جريا على القوانين السارية من قبل ، ولم يكن حتى لأبنـاء الريف أو الفلاحين -- بتعبير ادق -- مثل هذا الحق ، مما كان من اسباب ثورة عرابى ودوافعه .

ولعل ما نأخذه على بطرس باشا غالى ، انه كان سياسيا دونه دبلوماسيا يرى الواقـع دون الأثر النـاجم عنه ، وينشد

الفائدة دون الوسيلة ، وان حملت الناس عليه ، وكان ذلك من أسباب اغتياله ، ولعله السبب الأول ، فموقفه من مد امتياز شركة قناة السويس ، على غير ما يرى الرأى العام الذى ألهبت جوارحه دعوة مصطفى كامل الوطنية ، وكان اغتياله صبيحة الحادى والعشرين من فبراير سنة ١٩١٠ ، بعد وفاة مصطفى كامل بسنتين ، وفى نفس الشهر الذى توفى فيه مصطفى كامل ، العاشر من فبراير ١٩٠٨ .

ويختم الدكتور هيكل ترجمته حياة بطرس غالى بقوله :

(هذه حياة بطرس غالى ، والقارىء يرى كيف كانت حياة سياسى عظيم ومحسن كبير ، ولئن كان قد أخطأ التقدير فى بعض مواقفه فهو لم يقصد يوما الى غير خدمة بلاده ، ولذلك كانت آخر كلمة فاه بها حين احتضاره (يعلم الله انى ما أردت غير الخير لبلادى) ، وكانت كلمة حق ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ) .

هذا ما قيل وما دار حول اغتيال بطرس باشا غالى ، وان كنا نرى أن اغتياله كان بتدبير من الانجليز ، ولم يكن ذلك غريبا على سياستهم الامبراطورية ، التى بلغت أقصى امتدادها فى تلك الفترة ، كانت التضحية بأحد البارزين من رجالهم أو بمن يرون فى التضحية به تحقيقا لأهدافهم السياسية لحماية الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس ، فالسياسة الامبراطورية كانت ومازالت ــ كما نعتقد ــ تقوم على هدف ووسيلة ، أو بمعنى ادق غاية وخطة ، فالغاية هى الابقاء على تلك الجزيرة اللاغبة التى لا تكفيها موارد طعامها يوما واحدا ، والتى يحكمها الوفاق والعرف اكثر مما يحكمها دستور مقنن ، منذ صدور ــ

الماجناكارتا ـ (يونيو ١٢١٥) وكان من المرونة بحيث يساير التقدم والتطور والحاجة .

وكانت تضحيتها بقائد من كبار قادتها ـ تشارلس جورج جوردن (١٨٣٢ ـ ١٨٨٥) للاستيلاء على السودان والقضاء على ثورة المهدى ، أهون عليها من التضحية بفيلق من الجند ، او خسارة للامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، وما أهون عليها اذن أن تضع ـ بطرس باشا غالى ـ فى مواقف الحرج ليكون اغتياله سببا فى الوقيعة بين المسلمين والأقباط .

وكانت عداوة المصريين للانجليز بعد حادث دنشواى قد فاضت وفاض بها الكيل ، وكان اغتيال بطرس باشا غالى سمة على هذه العداوة ، فقد ظنوا انه ممالىء لسياسة الاحتلال ، ولم يبح قاتله ـ ابراهيم ناصف الوردانى ـ باسماء شركاء له ، وكان تنفيذ الحكم باعدامه فى شهر يونية القائظ ، وردد المصريون اغنية :

(قولوا لعين الشمس ما تحماشى لحسن غزال البر صابح ماشى) .

واخرى :

(لو كان معاى مال ويملا حفانى كنت افتديك بالمال ياوردانى) .

ولا يعنى ذلك ، الا أن المصريين لا يبخلون على هذا البطل بأى مرتخص وغال لانقاذه من الاعدام .

ولم يمتد العمر بمصطفى كامل ليشهد مأساة اغتيال بطرس باشا غالى ، رئيس المحكمة المخصوصة فى قضية دنشواى ،

وكان مصطفى كامل حينذاك فى باريس ، ولم يعرض لتشكيل المحكمة ، كما عرض لقسوة الحكم وفظاعة التنفيذ ، وجنونه لأية صفة للتمدين ، ونفى عن المصريين اية نزعة للتعصب الدينى ، واثبتها على الحكم البريطانى حتى فى انجلترا ذاتها ٢- فيقول : (ولا شك انه لا يمكن للعالم المتمدن ، وللرجال المحبين للحرية والعدل فى انجلترا ، الا أن يكونوا معنا ، ويطلبوا مثلنا الا تكون مصر ، تلك التى وهبت للعالم أجمل وارقى مدينة ـ أرضا تمرح الهمجية فيها ، بل بلادا تستطيع المدنية والعدالة أن تبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة) .

ولم تفت محاولة الانجليز للايقاع بين الأقباط والمسلمين على المصريين وقد حاولوها مرة ثانية ، حين دفعوا الى رئاسة الوزارة يوسف وهبة باشا ابان ثورة ١٩١٩ ، وكان من المحالفين للاحتلال ، واخذ الشاب عريان يوسف سعد الطالب بمدرسة الطب ، على عاتقه اغتيال رئيس الوزراء القبطى وان كان قد حاول ولم ينجح ، ونجا رئيس الوزراء باعجوبة ـ ١٥ ديسمبر ١٩١٩ ـ وحوكم وحكم عليه بالسجن المؤبد ، وبقى سجينا حتى أفرج عنه سعد زغلول فى وزارته الشعبية الأولى سنة ١٩٢٤ ، وكان آخر ما تولى من وظائف قبل تقاعده ـ مدير الادارة السياسية بجامعة الدول العربية ، وقد زاملته فى تلك الفترة ، عندما توليت ادارة الاستعلام والنشر ـ فكان كما سمعت عنه وعرفناه شجاعة وقدرة واباء وشمما رجلا من رجال ثورة ١٩١٩ حقاً .

ومن قبيل ذلك ، ما كان من انتخاب أول نقيب للمحامين فى مصر ـ ابراهيم بك الهلباوى ـ ولم تكن له هنة تؤخذ عليه ، ويؤاخذه عليها كل مصرى غير وقوفه موقف المدعى العام فى قضية دنشواى ، أما فيما وراء ذلك ـ كما يقول الدكتور هيكل فى

مذكراته (١) ــ فكانت وطنيته وكانت خدمته بلاده محل التقدير الرفيع ، واشد الناس خصومة له هم الذين قالوا انه اراد ان يكفر عن موقفه فى دنشواى : فدافع عن الوردانى فى مقتل بطرس غالى ، ودافع عن الذين اتهموا بعد ذلك بالتآمر على حياة الخديو ، وحياة كتشنر فى قضية عرف فيما بعد ، بأن ــ فلبيدس ــ يد الانجليز فى حكمدارية القاهرة ، كانت له اليد الطولى فى تلفيق اداتها) ويمضى الدكتور هيكل ، قائلا :

« سقت هذا الحديث عن هلباوى بك ، تمهيدا لقصة حدثت تدل روايتها على سعة صدر الرجل وحسن تقديره لوفاء ذوى الوفاء ، ففى سنة ١٩١٣ ، صدر قانون نظامى جديد ، احل الجمعية التشريعية محل مجلس الشورى والجمعية العمومية ، وعد خطوة فى سبيل النظام النيابى المصرى ، وجاء هلباوى بك يوما الى المنصورة ، وقضيت معه سهرة اشترك فيها عبد الرحمن الرافعى بك ، والأستاذ حسن حسنى المحاميان ، وفى اثناء الحديث ، قال الهلباوى بك انه يريد أن يرشح نفسه لعضوية الجمعية التشريعية ، وانه يرى هذه انسب فرصة ليدافع عن موقفه فى قضية دنشواى ، ودار الحديث بينه وبين الصديقين اللذين شاركاه الحديث فى هذا الأمر ، واللذين انتهيا الى موافقته على رايه ، فهو فى قضية دنشواى لم يكن الا محاميا طلب اليه أن يترافع فى قضية فترافع فيها شأنه فى هذا كشأنه فى قضية يقف فيها الى جانب المدعى بالحق المدنى ، وليس من حق المحامى أن يتنحى عن أداء واجبه ، وليس من حقه لأى اعتبار من الاعتبارات أن يقصر فيه ، وهو فى دفاعه فى القضية قد قسا على المتهمين ، لأن موقفه كان يقتضيه هذه القسوة ،

(١) مذكرات : الجزء الأول ، ف ١ ــ ص ٤٧ .

ولكنه فعل ذلك لينجي مصر من آثار لم يكن يعلمها غير الله ، وقد كان لبقا غاية اللباقة فى شرح موقفه من دنشواى وفى الدفـاع عنـه) .

(وافق الصديقان على ما قاله هلباوى بك ، وعلى أن من الخير أن يرشح نفسه للجمعية التشريعية ، وبقيت أنا صامتا لا أتكلم ولا أبدى رأيا بالموافقة أو بعدم الموافقة ، عند ذلك اتجه الى الرجل ، وقال : وما رأيك انت يا هيكل ؟ قلت أرجو أن أعفى من ابداء الرأى ! قـال : ولمـاذا ؟ قلت لأننى لا أريد أن أغضبك لأننى لا أريد أن أقول شيئا لا أعتقده ، ولا أن أقول شيئا يغضبك! قال : بل قل ما تعتقد ، ولن اغضب ، قلت ان قضية دنشـواى لم تكن قضية عادية يدافع فيها الهلباوى بك عن موقفه فيها بانه أدى واجب المحـامى ، بل كانت قضـية بين مصر وانجلترا ، وقد وقفت فيها سعادتك فى صفانجلترا ، فمن الخير أن تترك الزمن يسدل على موقفك هـذا ستار النسيان ، وما قمت به فى خدمة وطنـك قبل هـذه القضـية وبعدها خير ما يعـاون على تكثيف هذا الستار) .

(لم يجب الرجل على ما قلت ، ولم يقل أحد من صـديقى كلمة ، بل سادت فترة صمت انتقلنـا بعدها الى حديث آخر ، وتبسط هلباوى بك فى هـذا الحديث الآخر كعادته ، وكأنا لم نقل شيئا فى موضوع يمسه بالذات ، على انه لم يرشح نفسـه للجمعية التشريعية ، ولم يغضب منى ، وبقيت صلتنا قبل هـذا اليوم كصلتنا من بعده ، صلة أبوة من جانبـه فيها محبـة ووفاء، وصلة بنوة من جانبى فيها اجلال وتقدير ، وكذلك بقينا الى أن اختاره الله الى جواره بعد ثلاثين سنة من هذا الحديث) .

ويبدو ان الهلباوى بقى نادما على ما كان منه فى محاكمات دنشواى ، وبقى دائبا على استعادة مكانته ، حتى واتته الفرصة : (حين صدر قانون نقابة المحامين ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ وآن انتخاب مجلس النقابة ، وانتخاب النقيب فى أواخر سنة ١٩١٣ ، واجمع المحامون على انتخاب ــ عبد العزيز بك ــ باشا فهمى ــ تقديرا منهم لنزاهته وعلمه وفضله ، واظهر هلباوى بك انه يطمع فى هذا المركز لنفسه لانه أقدم المحامين ، ولانه خدم المحاماة منذ نشأتها ، وعرفت ذلك من هلباوى بك شخصيا ، فأفضيت به الى عبد العزيز بك ، ولشد ما ادهشنى عبد العزيز بك حين قال : نعم : ان هذا حق لهلباوى بك ، انه استاذنا جميعا ، وانه له على المحاماة من يوم نشأتها بمصر لفضلا اى فضل ــ وانقلب هو داعيا لهلباوى بك ، وانتخب النقيب الأول ، ولم يكن لنا معشر محبيه وانصاره ، والمقدرين لفضله ، وفضل هلباوى بك ، الا ان نحترم ارادتهما ، وانتخب هلباوى بك بالاجماع أول نقيب للمحاماة فى مصر .

ونعود الى ما قلناه من ان تدبير الانجليز لاغتيال بطرس باشا غالى لبث الفرقة بين المسلمين والأقباط فى مصر ، وكان ان فشل الانجليز فيما ارادوا فلما كانت ثورة ١٩١٩ اخذ الأقباط على عاتقهم اغتيال المستوزرين من الأقباط المحالفين للاحتلال ، ولعل الانجليز قد أرادوا ان يكرروا ما كان من مأساة بطرس باشا غالى ، فدفعوا الى رياسة الوزارة يوسف وهبه باشا ، وكان من الممالئين للاحتلال ، واخذ الشاب ــ عريان يوسف سعد ــ الطالب

بمدرسة الطب على عاتقه اغتيال رئيس الوزراء القبطى ، وان كان قد حاول ولم ينجح ، ونجا رئيس الوزراء باعجوبة ـ ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٩ ـ وحوكم وحكم عليه بالسجن المؤبد ، وافرج عنه سعد زغلول فى وزارته الشعبية الأولى سنة ١٩٢٤ ، وكان آخر ما تولى من وظائف قبـل تقاعـده ـ مدير الادارة السياسـية بجامعة الدول العربية ـ وقد زاملته فى تلك الفترة عندما توليت ادارة الاستعلام والنشر فكان كما سمعت عنه وعرفناه شجاعـة وقدرة واباء وشمما رجلا من رجال ثورة ١٩١٩ حقا .

١/٥ ـ مصـــر الخـــالدة

كانت مصر هواه وأغنيته الخـــالدة ، وما كان تجواله بأوربا داعيا لجلاء الانجليز ، الا من أجل مصر ، ليعيد الى مصر حقها المسلوب فى احتلال غير شرعى ، تعترف بعدم شرعيته انجلترا قبل غيرها ، حين أبقت للدولة العثمانية كل ما لها من حقوق على مصر ، فهى التى تصـــدر فرمان تولية الخديو ، وهى التى تعترف بأن بقاءها فى مصر لاقرار الأمن والنظام .

وقد رأى مصطفى كامل أن دعوته فى مصر لن تجد مجالا لها ، والانجليز يسيطرون على كل أمورها ، وما كانت دعوته فى أوربا متنقلا بين عواصمها متحدثا الى رجال الصحافة والسياسة، الا ليستوفى انجلترا وعودها بالجـــلاء عن مصر ، وحتى ذلك الوقت لم يكن قد لاذ بالدولة العثمانيـــة أو اتجه اليها ، وحين أصدر كتابه ـ المسألة الشرقية سنة ١٨٩٨ ـ كان ذلك بعد زيارته الآستانة ، والتقائه بالسلطان عبد الحميد ، ولعل ما لقيه من حفاوة الســـلطان ، وما ظنـــه من قدرة الدولة العثمانيـــة على التصدى للاحتلال الانجليزى ، ومازالت صاحبة السلطان الشرعى عليها ، هو ما حمله على التأريخ للمسألة الشرقية ـ وقد تناول فيه ـ كما يقول ـ مسألة النزاع القـــائم بين بعض دول أوربا

والدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها ، وبعبارة أخرى ـ مسألة وجود الدولة العلية ذاتها فى أوربا .

ولا يفوت مصطفى كامل ان يبرز ختل الانجليز فى سياستهم وخداعهم فيما يدعون ، أو يسلكون من وسائل فيقول :

(ولقد ادركت الحكومة العثمانية من يوم ان تولى أمور الدولة العلية جلالة السلطان الأعظم ـ عبد الحميد الثانى ـ أن انجلترا خداعة فى دورها ، وانها تضر بمن تتظاهر لهم بالصداقة ، اكثر مما تضر بأعدائها الظاهرين . فقد أخذت من الدولة العلية قبرص بدعوى مساعدتها ضد الروسيا فى مؤتمر برلين ، ثم دخلت المؤتمر ، وخرجت منه بدون أن تستفيد تركيا من هذه المودة الانجليزية الكاذبة اقل فائدة ، بل ان الدولة العلية فقدت فى هذا المؤتمر ما لم تفقد قط فى مؤتمر آخر) .

ويمضى مصطفى كامل فى عرضه فيقول :

(وقد حسب الانجليز أن يبلغوا متمناهم من مصر وادى النيل ويضعون بذلك أيديهم على الحجر الأساسى للخلافة الاسلامية والسلطنة العثمانية ولكن مما لا ريب فيه ، أن نصيبهم فى مصر الفشل ، عاجلا أو آجلا ، ولا يغرن القراء سيرهم الحالى فى بلاد وادى النيل ، فانما هو نتيجة ضعف رجال مصر الذين سلمت اليهم مقاليد الأمور ، واستيلاء الانجليز على الادارات المصرية ، لا يؤثر اطلاقا على جوهر المسألة المصرية نفسها ، وحيث فشل نابليون الأول يفشل الانجليز لا محالة) .

وقد اتسمت دعوة مصطفى كامل ـ كما راينا بالمحافظـة على الرابطة الاسلامية العامة ، والولاء للخلافة ـ ولعله كان متاثرا فى هذا بدعوة الجامعة الاســلامية ، او لعله كان يرمى ـ وهو ما نراه أقرب الى الواقع ، الى الافادة من الحق الشرعى الذى كفلته معــاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، فى حمل الانجليز على الجــلاء او لعله كان يرمى الى كسب تركيــا الى صفه فى المطالبة بجــلاء القوات البريطانية وحملها على المطالبة بحقوقها الشرعية ؛ ولكن مما لا ريب فيه أن دعوة مصطفى كامل الوطنية كانت عنصرا مهما من عناصر الحركة القومية الحديثة فى مصر ، فهى التى وجهتها وجهتها الصحيحة ، وهى التى حددت اهدافها ومراميها ، وحدودها فى تعريف المصريين بمعنى الوطن ، وحقوق وواجبــات المواطن ، وايقاظ معــانى الوطنيــة فى النفوس ، وهى مقومات القوميــة الحديثة ، وعواملها الأساسية .

ولم تكن دعوة مصطفى كامل لربط مصر بالخلافة العثمانية، وقد جاءت فى وقت متاخر ـ كما راينا ـ بعد انسياحه فى أوربا مطالبا بجــلاء الانجليز ، الا نوعا من الولاء للرابطــة الاسلامية العامة ، كان يسود العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ، وهو ما يسفر عنه ـ كما رأينا ـ فى كتابه ـ المسألة الشرقية ـ وظل قويا حتى فى ابان اشتداد الوعى القومى فى البلاد الاســلامية ، فقد ظلت الاتجاهات القومية فيها لا تنكر الولاء للخلافة الاسلامية ، وكل ما تتطلع اليه ان تحقق لنفسها نوعا من الكيــان الذاتى داخل الدولة العثمانية ، ولم تكشف النزعة الانفصالية فيها عن نفسها الا عندما جاءت كنتيجة طبيعية فيها لانهيار الدولة العثمانيــة وسقوط الخلافة .

وقد كتب مصطفى كامل فى صحيفة ـ الطان الفرنسية ـ

فى سبتمبر سنة ١٩٠٦ ، ردا على مقال نشرته عن ـ الجامعة الاسلامية ـ بين فيه حقيقة اغراضها ومراميها ، من حيث انها رابطة تعاون واخاء بين الشعوب الاسلامية ، هى فى اصولها ، بعض ما يهدف اليه العالم الاسلامى ، وما تحققه الاخوة التى طبع بها الاسلام شعوبه وأممه (١) .

وحمل مصطفى كامل لواء الجهاد الوطنى فى الداخل وفى الخارج ، فبينما هو يدعو المصريين فى صحفه التى يصدرها باللغات ـ العربية ، والفرنسية ، والانجليزية ـ وبخطبه التى يلقيها عليهم بين آونة واخرى الى المطالبة بحقوقهم ، ويحمل على سياسة الانجليز فى وادى النيل ، فيلهب الشعور ويحيى موات الأمل فى النفوس اذ به يثير الدول على سياسة الاحتلال ، وعدوان انجلترا على البلاد ، وانتهاك الحقوق الشرعية التى كفلتها لمصر معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، تارة بأحاديثه الى الصحف الكبرى ، وتارة بخطبه فى الاجتماعات العامة التى يعقدها لهذا الغرض فى عواصم اوربا ، وكانت باريس احفلها بدعايته ونشاطه ـ كما اشرنا من قبل ـ فان فرنسا كانت اكبر الدول الأوربية اهتماما بالمسألة المصرية ، واشدها غضبا للاحتلال البريطانى لمصر ، وظلت تستقبل دعاة الوطنية المصرية ، وروادها ، وتمهد لهم سبل الدعاية فى بلادها ، حتى أبرمت الاتفاق الودى مع انجلترا سنة ١٩٠٤ ، فاغضت عن تشجيع الوطنيين ، وصدم هذا آمالهم فى صدق دفاعها عن حقوق مصر وان لم يقض على نشاطهم ودعايتهم فيها وفى غيرها من البلاد الأوربية الأخرى .

---

(١) السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط للمؤلف ص.ص ٣٢٧ ـ ٣٤٣ تحت عنوان (٣ ـ مصر) .

ولم تكن دنشواى اول ما حقق مصطفى كامل من نصر فى حملته على الاحتلال البريطانى ، ولكيها كانت الفرصة السانحة التى واتته لابراز مساوىء السياسة البريطانية فى احتلالها مصر ، وما كان من ختلهم وتعسفهم واستبدادهم الضال بمصر والمصريين ، فلم يعد الاحتلال البريطانى انتهاكا للشرعية ، بل غدا عدوانا على المصريين ، واستباحة دمائهم بصورة لا يقبلها عقل ولا يعقلها ضمير انسانى ولا يدين بها خلق متمدن . أو يسلم بها عرف أو قانون ، بل انها كانت اساءة لسمعة بريطانيا لا فى مستعمراتها فحسب ، بل فى بلادهم وبين شعبهم ، أثارت الخجل والاستنكار لدى الحريصين على سمعة بلادهم ، ومستواهم من التمدن .

ولم يكن مصطفى كامل فى مصر حينذاك ، بل جاءته اخبارها ، وهو فى باريس يستشفى مما يعانى من ضعف ومن ارهاق ، ونسى مرضه ، وحاجته الى الراحة والاستجمام ليخوض معركة كتب له فيها النصر ، أعظم النصر ، وان كان على حساب صحته ، وحاجته للعلاج . ولم يكد يسمع بها حتى نهض ليكتب فى جريدة ـ الفيجارو الفرنسية ـ بعنوان : (**الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن**) وما لبث أن قصد لندن ليواجه الانجليز بآثام ممثليهم فى حكمهم لمصر ، وكان من أصالته السياسية والدبلوماسية ، أن يعرض الوقائع دون انفعال ، فيستهدى صوالح الأوربيين فى حكم عادل لمصر (وأن من الواجب على أوربا أن تهتم بمصر فان صوالحها فيها جسيمة ، والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها ، وان القوة الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان الا الى هياج الشعب المصرى ، وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية .. اننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية ، نطالب دستورا ينقذنا من السلطة المطلقة ، ولاشك

انه لا يمكن للعالم المتمدين ، والرجال المحبين للحرية والعدل فى انجلترا الا أن يكونوا معنا ، ويطلبوا مثلنا الا تكون مصر ـ تلك التى وهبت للعالم أجمل وأرقى مدنية ارضا تمرح فيها الهمجية ، بل بلادا تستطيع المدنية والعدالة أن تبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة) (٢) .

ولم تجد الحكومة البريطانية بدا ـ بعد لف ودوران لحماية ممثلها فى مصر والدفاع عن سياستها نحوها ، واتهام المصريين بالتعصب الدينى ـ بدا من عزل ممثلها فى مصر ـ **لورد كرومر** ـ ولتبدع سياسة جديدة للوفاق مع المصريين ، ويتجه مصطفى كامل بكل احساسه وجوارحه الى مصر اغنيته الشجية بعيدا عن السياسة والدبلوماسية اللتين سادتا نهجه فى دعوته لجلاء الانجليز فى أوربا ، ومع الخلافة العثمانية فى الآستانة ، ومع الخديو عباس حلمى الثانى . بعد ان لاذ بسياسة الوفاق ، كما ضعف ايمانه بفرنسا ومعونتها بعد الاتفاق الودى ، واقرار كل من المانيا والنمسا له ، حتى وقع حادث دنشواى فكشف عن قدرة مصطفى كامل وزعامته ، وايمانه بمصر ايمانا درج عليه منذ صباه الباكر ، وان حجب نهجه السياسى ودبلوماسيته ما كان من اتجاهه هذا ، حتى كان حادث دنشواى ، حين خرج جماعة من الضباط والعساكر الانجليز من القاهرة ، قاصدين الاسكندرية ، فمروا فى طريقهم بقرية دنشواى ، فنزلوا لصيد الحمام فى أجرانها ، واعترضهم الأهالى ، وحدث تصادم انتهى بجرح أربعة من المصريين بينهم امرأة ، واصابة بعض الضباط الانجليز اصابة فر من جرائها أحدهم الكابتن بول فأصابته ضربة

(٢) الرافعى ـ المصدر السابق ص ٢٠٨ و
The Public Record Office, London : Reader's Ticket :
Issued Aug 82, EL-NAGGAR — H.F.

شمس مات متأثرا بها ، وعلى اثر هذا الحادث عقدت المحكمة المخصوصة التى شكلت بدكريتو سنة ١٨٩٥ ، لتنظر فى هذه القضية ، وحكمت على أربعة من الأهالى بالاعدام ، وثمانية بالجلد ، وآخرين بالاشغال الشاقة ، ونفذ هذا الحكم بطريقة همجية ، لا عهد للانسانية بها منذ عصورها المظلمة ، فقد نصبت المشانق التى أرسلت الى قرية دنشواى قبل صدور حكم المحكمة امام منازل الأهالى مباشرة ، ونصبت الى جانبها آلات الجلد وغداة صدور الحكم نفذ على صورة يقشعر من هولها البدن ، فكان كل محكوم عليه بالاعدام يعلق فى المشنقة ، ويبقى معلقا أمام انظار اهله وأبنائه الى أن يجلدوا اثنين من المحكوم عليهم بالجلد ، وكان هؤلاء يجلدون بكرابيج ذات ثمانية السن ، معقود طرف كل لسان منها بقطعة من الرصاص ومن حوله المشانق والمجالد ، وفوق اسطح المنازل وقف الناس من أهل هؤلاء التعساء وذويهم يشهدون جلودهم تشوى بالكرابيج وجثثهم فارقتها أرواحها معلقة فى المشانق ، ومستشار الداخلية الانجليزى واقف يحافظ على النظام لهذا المشهد الذى ابدعته انجلترا فى مطلع القرن العشرين . ما اشدها وحشية والعسها حضارة !

هنا يجب أن يرتفع الصوت عاليا دفاعا عن الرحمة وعن الانسانية وعن العدالة ، وعن كل المعانى التى جاهدت الانسانية اجيالا وقرونا لتثبتها فى النفوس ، وأى صوت أرفع من صوت مصطفى كامل ، وأى أسلوب وجدانى كأسلوبه ، وهذه الدعاية السياسية التى فشلت بازاء قوة انجلترا فى أوربا وفى مصر ، لابد وان تنجح اذا استغلت لكشف هذا الظلم ، وللاستفادة منه لتحريك النفوس .

وقد نجح مصطفى كامل فى هذا أكبر نجـاح ، والحق انه لم يرتكب فى التاريخ الحديث فظاعة تعدل فظاعة تنفيذ حـكم دنشواى ، ولم تثر حادثة من الحوادث الشعور القومى فى مصر ما أثارته هـذه الحادثة ، ولقد صدق مصطفى كامل اذ قال :

(ان عشرات السنين كانت اقصر من أن تحيى شعور الشعب ، كما أحياه هذا الحادث) .

لذلك ظل يكتب ويخطب فى مصر وفى انجلترا بيانا لبشاعة هذا الظلم الذى بلغ من بشاعته أن اضطر لورد كرومر الى اعتزال منصبه فى مصر ، مع اعتراف الكل له بانه من أقدر الساسـه البريطانيين وأعظمهم أثرا فى حياة الاسبراطورية (٣) .

وما كان الاعتراف له بذلك ، الا لانه استطاع أن يسـوس مصر بالختل والخداع والادعاء والأكاذيب ، وقد جاء مصر أوائل الاحتلال البريطانى ومن يختاره وزير الحقانية من رئيسى محكمة مصر أو الاسكندرية الابتدائيتين ـ اى أن الغالبية ـ كما يقول الرافعى ـ فيهـا من الانجليز ، وقد جعلوا لها نظاما خاصـا فلا تتقيد بأحكام قانون العقوبات) .

وكان اصدار هذا المرسوم مما أثار مصطفى كامل ، فكتب فى الأهرام بعنوان ـ صواعق الاحتلال ـ (٤) ، وقد حمل على الاحتلال البريطانى واتهمه بالعدوان السافر على العدالة وقدسية القضاء ، وكانت بداية حملته فى أوربا ، وفى انجلترا بالذات ، على ما كان فى دنشواى .

---

(٣) د. هيكل : المصدر السابق : مصطفى كامل باشا ص ١٤٠ .
(٤) الاهرام ٤ مارس ١٨٩٥ .

وكان قد مضى على كرومر فى مصر منذ تولى أمورها سنة ١٨٨٢ قنصلا عاما بدرجة وزير مفوض فى السلك الدبلوماسى ولكنه كان صاحب النفوذ الأكبر والحكم فى مصر منذ ذلك الحين حتى استقالته سنة ١٩٠٧ بعد حملة مصطفى كامل على ما كان فى دنشواى .

وقد اذكى مصطفى كامل بحملته تلك فى مصر وفى أوربا الشعور الوطنى لدى المصريين ، وان بقى الريف وأهله بمنأى عن دعوته ، حتى كان هذا الحادث ـ حادث دنشواى ـ فايقظ فى نفوس الفلاحين كراهية الاحتلال ومن يلوذ به ، مما كان له أثره من بعد فى ثورة سنة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول ، وقد أصبحت مصر كلها مدنها وقراها ونجوعها على حد سواء .

وكانت البيئة بكل ظروفها ، وما كان يحيط بالمسالة المصرية من الناحية الدولية ، مما يؤهل لزعامة مصطفى كامل ، فالمصريون قد هزهم فشل الثورة العرابية ، ويدركون تماما الا قبل لهم بمقاومة الانجليز ، أو التصدى للاحتلال ، وكان منهم من لاذ بالاحتلال طلبا للمغنم ، حتى كانت دعوة نبى الوطنية مصطفى كامل لتعيد الأمل الى النفوس الواهنة ، لتكون ثورة مصر سنة ١٩١٩ ثمرة غرسه حين أورى فى قلوب الشباب ، بل وفى قلوب المصريين جميعا الحمية والحماس والأمل .

والواقع ان العامين الأخيرين من حياة مصطفى كامل قد شهدا يقظة وطنية عارمة ، امتدت للقرى ، بعد دنشواى ، كأقوى ما كانت فى المدن ، فقالت جريدة الديبا الفرنسية فى رثائه (انه بعث الروح المصرية من العدم ، واستطاع أن يصنع من المصريين أمة متميزة فى شخصيتها عن الشخصية العثمانية) .

ولم يلق مصطفى كامل بالا الى ما كان من زحف مارشان على فاشودة ــ كما يرى الرافعى ــ (٥) (وانها كانت كما يقول فوزا كبيرا للاحتلال وصنائعه فى مصر) وان كان هذا صحيحا بالنسبة لبعض المصريين الا أن مصطفى كامل لا يلقى بالا اليها ، ولا تثير حتى لديه تعليقا ما ، وليس فى خطابه الذى بعث به الى صديقه وزميله فى الجهاد المرحوم محمد بك فريد بتاريخ ١٩ اغسطس سنة ١٨٩٨ ، وجاء الرافعى على صورته الزنكوغرافية ، ما يشير الى شيء من هذا القبيل ، أو تنويه عنها برأى صدر عن مصطفى كامل .

وكل ما حسبه الرافعى اثرا من آثار زحف مرشان على فاشودة لم يكن الا من أثر الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى الثامن من يناير سنة ١٩٠٤ ، أى بعد زحف مارشان على فاشودة وانسحابه منها بأربع سنوات .

وكان ما كتبته ــ مدام جولييت آدم ــ الأم الروحية لمصطفى كامل ــ كما يراها ويعتز بانتمائه اليها ، وذلك فى فبراير سنة ١٩٠٤ لا يتصل بزحف مرشان على فاشودة ، كما يتصل بالاتفاق الودى ، وكان ما كتبته تنويها بخداع الانجليز وغفلة المصريين ، اذ تقول :

(لقد قلت فى رسائلى قبلا ان غير واحد من ساسة فرنسا ، قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعا وبصفة حاسمة ، وأبانوا لهم أن بعثة مرشان هى الحاملة

(٥) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ١٢٢ .

لراية استقلال مصر ، فصاروا جميعا يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان ، ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين) (٦) .

ولم يكن ما أشارت اليه مدام جولييت آدم بعيدا عن الحقيقة ، فقد بدت فيه نزعة الدعاية لفرنسا ، وهى دعاية اعلامية أكثر منها واقعا سياسيا ، ولعلها كانت من صنع الانجليز، أكثر مما كانت خاطرة لدى الفرنسيين أو بعض ساستهم فابقاء على الود القديم بين فرنسا ومصطفى كامل ، وما كان من لواذه بفرنسا فى حملته على الاحتلال البريطانى ، أما بريطانيا فما كان يعنيها أكثر من أن تثبت أن فرنسا لا يعتمد عليها ، وكان الاتفاق الودى غاية ما تنشد .

ولم يكن هذا مما يغيب عن ـ مدام جولييت آدم ـ وقد بقيت تكن لمصر كل الود والحب ، وترى فى مصطفى كامل ابنا يشبع لديها غريزة الأمومة ، وحين سعى مصطفى كامل اليها ، كان يدرك مكانتها وحفاوتها منذ صباها بالمسألة المصرية ، وقد ولدت سنة ١٨٣٦ والاحتلال البريطانى لمصر فى أوجه سلطانا ونفوذا ، وقد مضى عليها حينذاك أكثر من نصف قرن ، وتوفيت سنة ١٩٣٦ .

ويقول عنها الرافعى :

(انها من أعظم شخصيات فرنسا فى عالم الوطنية والسياسة والأدب ، وهى الكاتبة الكبيرة ذات الشهرة العظيمة ، والنفوذ الأدبى فى فرنسا ، وكان مشاهير الرجال من نواحى الأرض يرحلون اليها

---

(٦) الرافعى : المصدر السابق ص ١٢٢ .

ويجتمع بدارهـــا العلمـــاء والأدبـــاء ، وكبـــار القوم وملوك الشعر والأدب والسياســـة .. وقد وضعت سنة ١٩٢٢ كتابا قيما عن مصر أسمته (انجلترا فى مصر) وهو من خير ما الف فى المسألة المصرية) (٧).

وان كنا لا نسمع عنها من بعد ما يذكر ، وان عاصرت من الأحداث حتى وفاتها سنة ١٩٣٦ ، ما ينوء بذكره التـــاريخ ، وهو ما يؤكد أن صلتها بالزعيم مصطفى كامل صلة أمومة وبنوة ، وقد سعى اليها سنة ١٨٩٥ وكتب اليها يقول :

(سيدتى ، انى لا أزال صغيرا ولكن لى آمالا كبارا ، فانى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة ، مصر الفتاة ، هم يقولون : ان وطنى لا وجود له ، وأنـــا أقول يا سيدتى ، انه موجود ، بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب ســـواه ، وســـأجود فى سبيله بجميع قواى وافديـــه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفا عليه) .

وقد لبت مدام آدم نداءه ، وكتبت اليه ترحب بدعوته ، فجاء وقابلها وما ان عرفته ، وادركت سمو آماله فى تحرير بلاده حتى ازدادت (به اعجابا ، وتوثقت بينهما منذ ذلك الحين أواصر الاتصال الروحى ، اذ كان الفقيد يعدها أما روحية له) .

فلما دعاها لزيارة مصر ، جاءتها فى يناير ١٩٠٤ ، الشهر الذى عقد فيه الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا فى ٨ ينـــاير سنة ١٩٠٤ ، ولا يشير الرافعى الى صلة ما بين هـــذه الزيـــارة والاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا .

---

(٧) الرافعى : المصدر السابق ص ٥١ .

وان كان من حفـاوة مصـطفى كامل ، بل ومصر جميعـا بجولييت آدم ما بقي شاهدا على وفاء مصطفى كامل ، بل ومصر جميعا بجولييت آدم السيدة التى لم تكن له بمثابة الأم فحسب ، بل بقيت طوال حياتها بصحبة مصطفى كامل تكافح عن قضـية مصر ، وتقف سندا للزعيم فى جهاده فى فرنسا وفى غير فرنسا بالرأى والمشورة والتوجيه والسند ، والرعاية ، وكانت زيارتها لمصر بدعوة من مصطفى كامل ، اكبارا لمصر من جانبها ، واكبارا لها من جانب الزعيم ، الذى كان لها بمثابة الابن ـ كما قلنـا ـ وكان استقبالها بمصر حافلا فى كل مكان نزلته ، أو طوفت به بصحبة ابنها الروحى مصطفى كامل ، ويكتب عنها مقالا حافلا فى اللواء عدد ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤ ، بعنوان ضيفة مصر ، يقول فيه :

(زارت مصر فى هذه الأيام اميرة من أكبر أميرات الرأى العـام والقـلم والسياسـة ؛ الا وهى مدام جولييت آدم الكاتبـة الفرنسـية الطـائرة الصيت ، زارت مصر وقد عشقتها من قديم ، وشغفت بها من عهد شبابها ، ودافعت عنها بقلمها السيال السنوات الطوال ، فلذلك حق لمصر ان ترحب بها ، وللمصريين أن يقابلوها بالشكر والاعظام ...

وقد اتمت ضيفتنا العزيزة فى شـهر أكتوبـر المـاضى (١٩٠٣) السـنة السابعـة والسـتين من عمرها ومضى عليهـا خمسـون عامـا ؛ وهى الكوكب الساطع فى سـماء الأدب الرائع ، ونشرت الى اليوم اثنين وعشرين مؤلفا من أرقى المؤلفات وأسماها ، وقد نفدت كلها لكثرة الراغبين فى مطالعتها والمعجبين بها).

وقد طوفت مدام آدم بكل انحاء مصر ، ولقيت من الاكرام والتبجيل ما كان دلالة على ما أصبح ــ لنبى الوطنيــة مصطفى كامل ــ من اكبار فى قلوب وعقول المصريين ، وكتبت عنهــا اثر عودتها مقالا عما تركته زيارتها لمصر من اثر فى وجدانها وعقلها ، فتقول :

(تمثلت مصر كل ما غبر من حضـــارات ، وهى أول أرض ادركت سر الحياة ، وسر الوجود ، وعرفت قدرة الخالق الأعظم ، ولم يعهد التاريخ أمة بلغت من القوة والعظمة ، ما بلغت مصر والأمة المصريــة ، وانه ليمكن للانســـان أن يؤكد أن مصر ستبقى الى الأبد مصـــر) .

١/٦ ـ نبى الوطنيــة

من صفات الأنبياء التبشير بما يعجم على البشر ، وحيــا من الله جل جلاله من حقائق الكون واسراره ، فاذا كان من البشر من أوتى اليقين والقدرة على الادراك ، ادراك ما يخفى على الغير من صور الحياة وخفاياها فهى موهبــة من عند الله ، ونعمــة من نعمه ، لا يؤتاها غير قلة انعم الله عليهم بها ، فقد أوتى بعض صفات النبوة ، سمتها الذكاء والقــدرة على الادراك ، ادراك ما يعجم على الغير .

وكان مصطفى كامل ممن أوتى هــذه القدرة ، حتى ليدرك ما لا يتسنى لغيره أن يدركه ، وما يعجم على هــذا الغير ، وكان أول من ادرك دون غيره ما وراء زحف مارشان على فاشــودة ، فلم يلق اليها بالا ، ولم يشر اليها حتى بتعليق ، وهو ما فات على مؤرخ سيرته ـ عبد الرحمن بك الرافعى ـ فأضفى عليها من الأهمية ما ليس لها .

فلما كان حادث دنشواى ، ولم يكن مصطفى كامل فى مصر وقتهــا ، وقد علم بها وما جرى فيهــا وهو فى باريس للراحــة والاستشفاء ، فلم يلق بالا الى مرضــه وحاجته للراحة ، كوصية

الأطباء ، فنهض ليسمع العالم المتمدن والأمة الانجليزية صـوت مصر ، وكان مقاله فى جريدة ـ الفيجـارو الفرنسية ـ بعنوان الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن . وما لبث أن قصـد لندن ليشهد الانجليز على عبث حكامهم ، وكأنه يشكو الحكام الانجليز الى الشعب الانجليزى ، وبرهن بذلك على ما يتمتع به من قدرة وكياسة ، وادراك واع لطبيعة الأشياء .

وفى لندن نجح فى أن يؤلب الراى العام على سياسة كرومر ، وكانه يبرىء الشعب الانجليزى من عبث ممثليه ، وكسب الى جانبـه الكثيرين من اعضـاء مجلس اللوردات ومجلس العموم والصحفيين ، فى دعوته لاستقلال مصر ، وتحررها من الاحتـلال البريطانى ، وعسف القائمين من الانجليز على الحكم فى مصر ، وكانت النزعة الانسانية العامة اسمى ما يتحلى به من طبـائع وحين زعم بعض الانجليز أن المصريين يعملون على تغيير الحـكم الانجليزى بالحكم التركى ، وهو ما أشارت اليه جريدة ـ الديلى جرافيك الانجليزية ـ فانبرى للرد عليها ـ كما يقول الرافعى ـ بمقال عنوانه ـ مصر للمصريين ـ يقول فيه : (أن مصر ترفض كل نير أجنبى وكل سيادة أجنبية) .

وكان حبه لمصر ينبعث من الأعماق ، تمثل كل حب آخر ، وقد امتـلأت رحابها ـ بعظـام الآباء والأجداد ـ وأى فضـل لمثلى وأصغر جندى فى الجيوش يلقى علينا جميعـا أكبر درس وأسمى عظة لأنه الحامل لراية الوطن ، المدافع عن شرفه ومجده واستقلاله المفدى لحياته صيانة لحياة الملايين من الشيوخ والنساء والأطفـال .

كانت مصر غايته ومنشده ، وكان الاسلام شرفه وحليتـه وكانت النزعة الانسانيـة العامة أسمى ما يتحلى به من طبـائع الأمم فلا يطيق الاستبداد يقع على اى فصيل أو ملة أو شعب ،

ويأنف من التعصب فى اى لون دينيا أو سياسيا أو عنصريا ، وكان له فى كل هـذا جولات وصولات وحكم بالغة ، وما كانت حملته على الاحتلال البريطاني وسياسة كرومر فى بريطانيا ، وفى لندن عاصمة المحتلين الا من هـذا القبيل . فكان يناشـد الضمير الانساني لدى الانجليز ، كما ينشده بين الملل والنحل الشرقيـة والغربية فى عاصمة الانجليز ، وفى كل مكان تمتد اليه دعوته .

وما كانت مصر حلمه الأكبر لا لأنها وطنـه الأثير فحسب (فما من شرف يطمع الحر فيه ــ كما قال فى خطبته بالاسكندرية سنة ١٩٠٧ ــ أكبر من العمل لاحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنيـة والأدب ، اى رفعة يسعى الشريف اليها أسمى من انهاض شعب كان أستاذ الشعوب البشرية ومربى العالم كله ؟ ان مصر جديرة بأن تحب بكل قوة ، بكل عاطفة ، بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل حياة) .

(لا قوم لأمة ولا سلامة لبلاد الا بقوة العقيدة الوطنية ، ان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى ابد الدهر مزعزع العقيدة ، سقيم الوجدان) .

(ان الدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنيـة هما المؤديان الى تحقيق آمال الأمة المصرية ، فليكن معتقد المصريين جميعـا أن نجاة مصر لا تكون الا بهمم المصريين ، وان ارتقاءنا موكول الى عزائمنا ، فلنطلب النهوض من انفسنا ولنعمل بالهمة والصدق والاتحـاد) .

وكانت السنتان الأخيرتان من حياتـه لمصر ، فغدت على لسانه نشيدا فواحا بالحب والاكبار ، فهى اغنية حبه :

(ان مصر جديرة بأن تحب بكل قوة بكل عاطفة بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل حياة) .

وهى : (بلادى ، بلادى ، لك حبى وفؤاد ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك حبى وجنانى ، فأنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر) .

وهى : بغيته ومنتهاه وامه الرؤوم :

(ان لم اولد مصريا لوددت أن اكون مصريا)

وهى : حبه الذى لا يعلو عليه حب آخر :

(هل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ مهما احبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو اليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها ، الا ايها اللائمون ، انظروها وتأملوها ، وطوفوها ، واقرأوا صحف ماضيها واسألوا الزائرين لها من اطراف الأرض ، هل خلق الله وطنا أعلى مقاما ، واسمى شأنا ، واجمل طبيعة ، واجمل آثارا ، واغنى تربة ، واصفى سماء ، وأعذب ماء ، وادعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد ، ان مصر جنة الدنيا ، وان شعبا يسكنها ، ويتوارثها لأكرم الشعوب اذا أعزها ، واكبرها جناية على نفسه ، وعليها اذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبى) .

وهى : (أحق بأن تحب حتى وان كانت مستعبدة) .

(وقد يرى السفهاء والطائشون ان الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بانسان .. ولكن اى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لاحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب ؟) .

(اى رفعة يسعى الشريف اليها اسمى من انهاض شعب كان استاذ الشعوب البشرية ومربى امم العالم اجمع ؟) .

(ان مصر جديرة بأن تحب بكل قوة ، بكل عاطفة ، بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل حياة) .

وقوة العقيدة الوطنية هى المعول وهى الأساس فنراه يقول :

(لا قوام لأمة ، ولا سلامة لبلاد ، الا بقوة العقيدة الوطنية ، وان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة ، يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان) .

والدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية هما المؤديان الى تحقيق آمال الأمة المصرية ، فليكن معتقد المصريين جميعا ان نجاة مصر لا تكون الا بهمم المصريين ، وأن ارتقاءنا موكول الى عزائمنا ، فلنطلب النهوض ، والعمل له بالهمة والصدق والاتحاد .

(وكل احتلال أجنبى هو عـار على الوطن وبنيه) .

وعلينا أن نسأل : أليس ذلك شبيها بدعوة الأنبياء ، فهى أجل وأعظم من دعوة المصلحين اذ يتوخون الاصـلاح باجمـاله دون الترشيد بدواعيه ومكنونه وفلسفته ، وعادة ما تكون فى جانب واحد لا يتعداه لغيره ، كالدعـوة للتعليم ، والدعـوة لمحو الأمية ، والدعوة لترشيد الانفـاق ، أما دعـوة مصطفى كامل الوطنية فقد فاقت الترشيد الى بيان الفلسفة التى تكمن وراء النزعة الوطنية ، من عوائق الزمن ، وتخلف الأجيال ، والتباين بين ما كان وما يكون على مدى الزمن .

فاذا دعوت الزعيم مصطفى كامل بلقب ـ نبى الوطنيـة ـ فلأن نهجه كان نهج الأنبياء فى الايثار والصـدق وتوخى الغاية لنهضة المجتمع والتحرر من عوائق المـاضى وأباطيله .

١/٧ ــ الصفحــة الأخيــرة

وكان آخر ما كان من صفحة جهاده ، وقد تفرد بها دون غيره فلم يلق غيره بالا اليها، وكان هو وحده الذى تصــدى لها وكشف ســوءتها ، ففى ســنة ١٩٠٧ ، وكانت حــكومة الأحرار وعلى راسها ــ كامبل بانرمان ــ رئيس الوزارة البريطــانية ؛ وزعيم حزب الأحرار الذى كان يسيطر على الرأى العام حينذاك ؛ وقد اخذ القلق يراوده حول مصير الامبراطورية ، ونشل البعوث التبشيرية فى التغلب على العقيدة الاســلامية لدى المسلمين ، وكانت تلك البعوث التبشيرية قلعة الاستعمار الأوربى ، والانسياح الاستعمارى الأوربى فى البحر المتوسط والشرق الاســلامى ، وهداه تفكيره الى بحث الوسائل التى تمد من أجل الامبراطورية البريطانيــة .

وكان أن كلف لجنة من المفكرين واساتذة الجامعات الأوربية باستقراء مستقبل الاستعمار ، ولم تجد اللجنة ، وقد عقدت اجتماعات فى الجزائر ، وقد اخذ النفوذ الفرنسى يمتد اليها ، ما يهدد مستقبل المستعمرات الأوربيــة فى غير هــذا النطــاق الاسلامى الذى يمتد عبر الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ، ففى

هذا النطاق فشل التبشير المسيحى أمام صمود العقيدة الاسلامية فى قلوب أصحابها وعقولهم ، وكانت الخشية أن يستعيد العرب صولتهم القديمة حين حملتهم العقيدة الى الانسياح شرقا وغربا ظافرين ليحطموا أعظم امبراطوريتين ويرثوا أملاكهما .

وقد ظلت هذه العقدة قابعة فى العقل الأوربى الى يومنا هذا . ولم يلق تقرير لجنة بانرمان بالا الى ما جاء على لسان دعاة التبشير من قبل ، الا ما كان منها سندا للاستعمار الأوربى ، فاذا كان الخطر الماثل من صحوة الشعب العربى ، وله من الوحدة التاريخية والدينية ووحدة اللغة والثروة الكامنة فى أرضه ، وقد بدت بوادرها تنم عنها أوائل هذا القرن منذ نزعت بريطانيا الى استخدام البترول فى تسيير سفنها بدلا من الفحم ، ما يزوده بكل أسباب التقدم والنهوض ، فضلا عن تكاثره السكانى ، وقد يصل خلال القرن التالى الى مائة مليون نسمة فماذا يكون المصير لو نهض من جديد وشق طريقه الى حضارة العصر ؟ فلا مناص اذن من أن يبقى هذا الشعب العربى المسلم غارقا فى جهالته ، ممزق القوى ، يعصف بوحدته التناحر والتمزق لدرء خطره على الاستعمار الأوربى .

وادرك مصطفى كامل ما لم يدركه غيره ، وحين بدأ حملته فى انجلترا على ما كان فى دنشواى ، أدرك كامبل بانرمان أن سياسة كرومر قد انتهت الى البوار ، ولم يشأ أن يعلن ذلك ، أو يتخذ خطوة مباشرة لعزله ، وأعاده الى مصر ليكون عزله تنفيذا لمشيئته فى الاستقالة ، وان بدت بادرة لنهج جديدة فى السياسة البريطانية نحو مصر .

وقد كان كرومر من أساطين الاستعمار البريطانى تلفحه نزعة جارفة من التعصب الدينى ضد الاسلام والمسلمين وكل

ما هو شرقى ، منذ بدأ جولته فى خدمة الامبراطورية البريطانية سنة ١٨٥٨ ضابطا وياورا للمندوب السامى البريطانى للجزر الأيونية (١٨٦١) واميناً خاصاً لحاكم الهند العام (١٨٧٢ ــ ١٨٧٦) ووزيرا للمالية بالهند (١٨٨٠ ــ ١٨٨٢) واختارته الحكومة البريطانية سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال البريطانى لمصر قنصلا عاما لمصر بدرجة وزير مفوض فى السلك السياسى ، ومنذ ذلك التاريخ حتى استقالته (١٩٠٧) كان الحاكم الحقيقى لمصر ، وكان تاريخ البلاد ابان هذه الحقبة هو تاريخ السياسة التى انتهجها ، ولم يكن يعين رئيس للوزارة المصرية الا بموافقته ، وقد ارتكب أكبر خطأ فى حياته السياسية بموافقته على الأحكام الصارمة على المتهمين فى قضية دنشواى (١٩٠٦) اذ وضع نهاية لحياته السياسية باضطراره الى الاستقالة فى ابريل سنة ١٩٠٧ .

وكان مصطفى كامل من الذكاء واللباقة وسعة المعرفة بما لم يتسن الا لقلة ازدان بها تاريخ مصر فى تلك الحقبة أمثال لطفى السيد استاذ الجيل وقاسم أمين (بك) واسماعيل صبرى (باشا) وسعد زغلول وغيرهم وقد نشأوا جميعا فى أحضان الثورة العربية ، أو فى أعقابها ، وكانوا ثمرة غرسها ، حين غدت عبارة ــ مصر للمصريين ــ على لسان كل مصرى . فبقدر ما كانت حملة مصطفى كامل على كرومر ، لم يفته أن يحمد له حسناته حتى لا يتهم بالتعصب ، فيقول فيما كتبه عنه فى اللواء فى الثانى عشر من ابريل سنة ١٩٠٧ :

(هذا ما نذكره للورد كرومر ويذكره كافة المصريين ولكننا نذكر له بكل انصاف انه لبث طوال حياته مثالا للنزاهة الذاتية ، حتى يصح أن نضرب

به الأمثال من هـذه الوجهة لكافـة الحكام وذوى السلطة ، ولو شاء جنابه لكان أغنى أغنياء الأرض بما فى قبضته من جاه ونفوذ ، ولكنه فضل الشرف الذاتى على المـال وخيرا ما فعل) .

فاذا لم يكن ذلك من مصطفى كامل سمة على اللباقـة ، وكانت خلة من خلاله ، فانه ولا ريب سمة على الذكاء السياسى ، فاذا قرأ الانجليز أو غيرهم ذلك لكان دليلا على صـدقه وعدالة مطالبه فى الجـلاء ، (فليس فى مظاهر القوة مظهر أرقى واسمى من المجاهرة بالحق والدفاع عن مصالح الأوطان بكل قلم ولسان) .

وكان من هذا القبيل ما كان من رسالته الى رئيس الوزراء الانجليزى ــ السير هنرى كامبل بانرمان ــ فى الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٩٠٧ لمناسـبة ذكرى احتلال الانجليز القـاهرة سنة ١٨٨٢ ، يقول فيه :

(يا حضرة الرئيس ــ ان هـذا اليـوم يـوم ١٤ سبتمبر هو يوم مخلد الذكرى فى التاريخ سواء بالنسبة لمصر او انجلترا ... فاسمحوا لى أن اذكركم بانه فى آن واحد نتذكر مرور مائة عـام على جـلاء الجنود البريطانية عن مصر ، ذلك الحادث الذى وقع يوم ١٤ سبتمبر عـام ١٨٠٧ والتـذكار الخـامس والعشرين لدخولها مدينة القاهرة الذى حصـل يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢ ، فلهذا التذكار شأنان ، واذا كان يذكر المصريين بمجد آبائهم الذين عرفوا كيف يدافعون عن الوطن ، ويجبرون انجلترا على العدول عن غزو مصر من قرن مضى ، فانه يحملهم ايضا على التفكير فى تلك التصريحات الرسمية التى صـدرت

عند حصول الاحتلال الحـالى لبـلادهم ، وفى كلمـة الشرف والتعهدات التى اخذتها على نفسها بريطانيا العظمى ...) .

ولم يكن هناك فى الواقع ما يحمل مصطفى كامل على كتابة ما كتب ، فان ما كان ، كان غير ذلك تماما ، فان ما ثوى فى الفكر الغربى من تعصب مقيت ضـد كل ما هو شرقى ، وضد المسلمين والفكر الاسلامى بنوع خاص تحملهم عليه نزعة استعمارية اكثر منها نزعة دينية ، فقد سار الدين فى ركاب الاستعمار ، وكانت الارساليـات التبشيرية فى خدمـة الاستعمار اكثر منها فى خدمة المسيحية ، وهو ما أشار اليه ـ كامبل بانرمان ـ رئيس الوزارة البريطانية فى حكومة الأحرار عام ١٩٠٧ ، حين اخذ القلق يراوده حول مصير الامبراطورية . وهـداه تفكيره الى بحث الوسـائل التى تبقى على الاستعمار ، وتمد من اجل الامبراطورية البريطانية، وكلف لجنة من المفكرين واسـاتذة الجامعات فى أوربا باستقراء مستقبل الاستعمار الأوربى .

ولم تجد اللجنـة وقد عقدت اجتماعاتها فى الجزائر مطمع الاستعمار الفرنسى ، ما يهدد مستقبل الاستعمار الأوربى فى غير هذا النطاق الاسـلامى الذى يمتد عبر الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ، ففى هـذا النطـاق فشـل التبشير المسيحى أمام صمود العقيدة الاسلامية فى قلوب أصحابها ، وكانت الخشـية من أن يستعيد الغرب صـولتهم القديمـة حين حملتهم العقيدة الى الانسياح شرقـا وغربا ظافرين ليحطموا اعظم امبراطوريتين ويرثوا أملاكهما .

ولم يلق تقرير لجنة بانرمان بالا الىّ ما جاء على لسـان دعاة التبشير من قبل الا ما كان منها سندا للاستعمار الأوربى ،

فاذا كان الخطر الماثل من صحوة الشعب العربى . وله من الوحدة التاريخية والدينية ووحدة اللغة ، والثروة الكامنة فى أرضه ما يزوده بكل أسباب التقدم والنهوض ، فضلا عن تكاثره السكانى ، وقد يصل خلال القرن التالى الى مائة مليون نسمة ، فماذا يكون المصير لو نهض من جديد وشق طريقه الى حضارة العصر ؟

فلا مناص اذن من أن يبقى هذا الشعب العربى المسلم غارقا فى جهالته ممزق القوى ، يعصف بوحدته التناحر والتمزق لدرء خطره على الاستعمار الأوربى ، فضلا عن تشويه العقيدة الاسلامية بالخرافات والأباطيل التى تنسبها الى المسلمين .

ولم يشر مصطفى كامل فى رسالته الى ــ كامبل بانرمان ــ فى خريف سنة ١٩٠٧ ، الى ما كان من قرارات لجنة بانرمان . وما كانت لتغيب عنه هذه القرارات ، أو ما كان من اتجاهات الاستعمار الأوربى للشرق الاسلامى والصحوة العربية ، وان لم يشر اليها ، وكان ذلك ــ كما نعتقد ــ دليلا على اللباقة والكياسة والذكاء ، فلو انه اشار اليها لاتهم بالتعصب الدينى، واكتفى بان يشير الى الاحتلال البريطانى لمصر ، وان عرض لاتهام الحكومة البريطانية على لسان كرومر ، للمصريين بالتعصب الدينى ، فدفع هذا الاتهام ، حتى لا يحمل الرأى العام الأوربى على قضية مصر فى الاستقلال وجلاء الانجليز عنها ، ولا يشغلها عن قضية الجلاء بقضية التعصب الدينى ، مما نسبه كرومر الى المصريين ، وكان حديثه الى صحيفة ــ الديلى كرونكل ــ

(١) الاسلام والدولة العصرية للمؤلف : ص ٥٩ ــ الاسلام والغرب الأوربى .

يوم ٢٠ يولية سنة ١٩٠٦ ، (دحضا ــ كما يقول الرافعى ــ لتهمة التعصب الدينى التى اراد خصـــوم الحركة الوطنية أن يصفوها بها ، وينسبونها اليها ، وبرهن على تسامح المصريين الدينى ، وعرج على حادثة دنشواى وفظاعة المحاكمة والتنفيذ فيها) (٢) ، وكان ذلك دليلا على الذكاء واللباقة ، فلم يشأ أن يصرف جهده لقضية أخرى تشغله عن قضية مصر وجلاء الانجليز عنها . ولم يقف طويلا على دحض اتهام المصريين بالتعصب الدينى (وعرج ــ كما يقول الرافعى ــ على حادثة دنشواى وفظاعة المحاكمة والتنفيذ فيها) وكان ذلك آخر ما كان من جهاد نبى الوطنية مصطفى كامل فى سبيل مصر ، وان تكون مصر للمصريين .

وكان ختام ، رسالته الى ــ بانرمان ــ قوله :

(ان أفضل صديق لانجلترا هو الذى ينصحها باحترام شرفها ووعودها ، ويقول لها بكل اخلاص ان كل ما تستطيع عمله ضد مصر ، لا يوقف بلادنا فى طريق الحريـــة الذى سلكته بكل عزم ، وان أمـــة كأمتنا جمعت مدة قرون عدة قوى من الصبر والهمة والارادة . ولا تعرف اليأس ، ولا تقف أمام اى عائق لاسترداد استقلالها ، وان لانجلترا الحرة أن تقرر اذا كان هذا الاستقلال سيتم بارادتها أو ضـــدها ، ولقد رايت من الضرورى يا حضرة الرئيس أن اذكركم فى هذا اليوم المخلد الذكر بالنسبة لكم ، وبالنسبة لنا بوعود الحـكومة البريطانيـــة ، وبما تنتظره مصر الوطنية من المستقبل .

---

(٢) الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٢١٩ .

وتفضلوا يا حضرة الرئيس بقبول عظيم احترامى) .

باريس فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧

مصطفى كامل

وآب مصطفى كامل الى مصر ، وفى السابع من اكتوبر كان وصوله الى الاسكندرية ليقابل بأعظم ما يقابل به فاتح فى التاريخ، وقد أصبح اسمه ، وأصبحت كلماتـه نشـيدا على لسان كل مصرى ، وليطلب من مستقبليه أن يقولوا معه :

(لتحى مصر ، ليحى الاستقلال)

وأخذت الجماهير تردد هذا الهتاف وراءه ، وكانت البداية فى اقامة الحزب الوطنى ، والانتقال به من حيز القول الى حيز العمل ، وقد عمل على أن ينظم صفوف الوطنيين فى اطار سياسى مكتمل ، فدعا الى انشاء الحزب الوطنى فى خطاب حافل القـاه بمسرح زيزينيا بالاسكندرية مساء الثلاثاء ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وكانما قد أحس دنو أجله فأراد الا يودع الميدان ، الا وقد ترك للكفـاح صرحا مشـيدا يمضى على الطريـق ، وفى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ أصبح الحزب الوطنى محفل الوطنية الكبير ، ولم تمض أيام قلائل حتى أفرج عن مسجونى دنشواى فى ٧ يناير سنة ١٩٠٨ ، وكانما اراد القدر الا يمضى الزعيم الى لقـاء ربه قبل أن يجنى ثمرة غرسـه وآخر ما ذاد عنه ، فلم تمض ايـام أخر حتى ودع الزعيم الشاب الحيـاة فى العـاشر من فبراير

سنة ١٩٠٨ ، وبكتــه مصر جميعا ؛ ولم يهتز لها قلب ، كمــا اهتز يوم وفاته :

(فلما سار النعش يحمله أهل دنشــواى على اعناقهم ، ثم كان لسعى مصطفى ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ أكبر الأثر فى العفو عنهم ، صمت كل من فى المدينة وكل ما فيها ، ولم يبق أثر لحيــاة الا فى وداع هذا الراحل رحلة الأبد) .

١/٨ ــ الســاعات الأخــيرة

وكانت الســاعات الأخيرة ــ كمــا يأتى عليهــا ــ طاهر الطناحى (١) ــ فى أبلغ صورة وأكمل وصف فى كتابه ــ الساعات الأخيرة ــ فيقول :

(كانت الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ وقد أخذ قلب مصر يخفق خفقانا شديدا للخطر الذى احدق بزعيمها الشاب مصطفى كامل منذ الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، وما مضت نصف ساعة حتى كانت المــأساة الوطنية الكبرى بأفول هذه الحيــاة الساطعة التى اتقدت حماسة ونشرت نورها بين الجوانح والقلوب ، فأيقظت نفوس المصريين ، ودفعتها الى الأمام عشرات الأعوام .

شعر الفقيد العظيم بالمرض لأول مرة قبــل وفاتــه بنحو احد عشر عاما من فرط الاجهاد فى العمل لخدمة وطنه ، وسعيه لتحرير أمته من ربقة الاستعباد ، ونير الاحتلال البريطــانى ،

---

(١) كتاب الهلال : سلسلة شهريــة تصــدر عن دار الهــلال ــ رئيس التحرير طاهر الطناحى ــ العدد ١٣٠ يناير ١٩٦٢ .

فقد عاد من أوربا فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٩٧ ، فاستقبله اصدقاؤه وأنصاره بالحفاوة والتكريم ، ولم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أنهك قواه عدة أسابيع ، فأشار عليه الأطبـاء ان يقضى الشتاء فى حلوان ، فعمل بمشورتهم ـ وسافر الى هـذا المشتى ومكث فيه حتى ابل من مرضـه ، ثم كتب الى شقيقه على فهمى رسالة فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٩٧ يقول فيها :

(أخى ـ لاشك أنك قلقت كثيرا حتى بعثت بثلاثة تلغرافات بعد عدة خطابات لتقف على صحتى لانى منذ ثلاثة اشهر لم أكتب اليك كلمـة ، انى كنت فى مرض شديد يئست معه من حياتى ، وقد أصابنى بعد وصولى الى العاصمة بيومين ، وهو مسبب من كثرة المتاعب التى صادفتها فى هـذا العام ، والتى اؤمل أن تكون ناجحة لأنها ، كما تعلم صادرة باخلاص ولا أمل لى فى شيء من ورائها سوى عودة مصر الى زهوها ، ورجوع السيادة لأبنائها المخلصين ...) .

عاد مصطفى كامل الى جهاده والى متاعبه ولم يشفق على نفسه المحبة لمصر ، المغرمة بحريتها وكرامتهـا ، فكان المرض يعاوده حينا بعد حين ، ففى سنة ١٩٠٣ ، اعتلت صحته ، وكتب الى مدام جولييت آدم من فيشى بفرنسا كتابا يقول فيه :

(يجب ان اقضى معظم هـذا الشـهر فى ـ التيرول ـ مع صديقى فريد بك الذى تشرفت بتعريفه اليك منذ سنتين لأن الأطباء قد رأوا أنه من الواجب ان أمضى فى الجبل بعض الزمن اذ أخذ التعب يستولى على اعصابى ، ولهم الحق فى ذلك ، فانى لم اشفق على نفسى) .

(ان العمل قد اضنانى الى حد اشعر معه
بسرعة الحاجة الى ترك الوسط الذى اعيش فيه ،
وكأن الطبيعة خالفت سنتها ، اذ جعلت قوة روحى
اكبر من قوة جسمى) .

ويمضى الطناحى فى تاريخه للساعات الأخيرة لحياة مصطفى كامل فيقول :

(وفى صيف سنة ١٩٠٦ سافر الى أوربا للاستشفاء والعلاج وكان فى حاجة قصوى الى الراحة ، ولكن حادثة دنشواى جعلته يقطع على نفسه سبيل الراحة والعلاج ، فهب من فراش المرض يدافع عن المظلومين ، ويحارب بقلمه ولسانه وجسمه الظالمين ، وكان وقتئذ فى باريس ، فثارت نفسه ، ووثب قلبه ليسمع العالم صوت مصر ، وكتب فى جريدة الفيجارو الفرنسية مقالا بليغا ، بعنوان ــ الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدين عرض فيه حادثة دنشواى على الضمير الانسانى ، فكان لها اثرها البالغ فى النفوس ، وكانت من أبلغ ما كتب الفقيد العظيم ، واكبر معول فى هدم صرح الظلم والهمجية الذى أقامه اللورد كرومر فى مصر .

ويقول الطناحى :

وأخذ الزعيم مصطفى كامل يواصل الجهاد بلا مبالاة بصحته ، وغرامه بحريتها يشغل نفسه ، وفى صيف سنة ١٩٠٧ رحل الى أوربا للاستشفاء والجهاد ، وكانت هذه الرحلة هى آخر رحلاته ، فشعر بالمرض يشتد عليه ، فقال للمسيو ادولف ادربر مراسل الاتيندار فى باريس حين قابله :

(انى أشعر ان المرض قد عاد الى ، ترى هل
أعيش حتى أرى أول نجاح لمجهودى ليحصد الآخرون

نتائج جهادى ولكنى أتمنى أن يكون لى وقت كاف للغرس والزرع) .

وكانت هذه هى الأمنية الكبرى بعد ما شعر بأن مرضه الخطير يهدده بالفراق ، ولما عاد مصطفى الى مصر فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ قابله الشعب بأعظم مظاهر التقدير والاعجاب ، ورأى الحاضرون علامات الضعف بادية عليه ، فقال لهم : يخيل الى اننى عما قريب سوف أفارقكم ! .. فقال اخوانه :

ــ الى أين ؟ لقد اجهدت نفسك ،وسموت فوق الطاقة فى الجهاد ، وانهكت جسمك فى السفر فى سبيل مصر مرارا فاسترح فى بلدك ! .

ــ سوف يستريح جسمى الراحة الكبرى ، وكنت اود لو استراحت روحى ونفسى قبل الفراق .

ــ ماذا تعنى يا باشا ؟

ــ اعنى لن أعيش طويلا ، وسأموت قريبا ، فلا تضيعوا الوقت واسرعوا فى العمل !

ــ سلمت يا مصطفى ، لا تتشاءم ، ودع هذا الوهم وسيمن الله عليك بالشفاء التام .

ــ ليس تشاؤما ، وليس وهما ، انى لأشعر فى أعماق نفسى بقرب نهايتى !

فارتاع اخوانه من هذا الحديث الذى دار بينه وبينهم فى اجتماعهم فى اكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وجمدت أبصارهم وجلسوا فى ذهول . وفى أثناء هذه اللحظات التفت الى شقيقه على فهمى كامل ، وقال :

(تشجع يا على ، واذا مت فليحمل اللواء هـذا الرجل النبيل) واشار الى محمد فريد بك .

ولقد كان مصطفى يغالب العلة ، ويكافح المرض ليواصل رسالته فى الجهاد لحرية مصر وخلاصها من الاحتلال ، ثم كان خطابه الحماسى البليغ الذى القاه فى ٢٢ اكتوبر بمسرح زيزينيا بالاسكندرية قبل وفاته بنحو اربعة اشهر ، واستمر اربع ساعات فى القائه ، فبذل من صحتـه ومجهوده ما دفع اصدقاءه الى الاشفاق عليه والخوف من أن يكون خطابه هو خطاب الوداع وقد ضمنه آماله ومبادئه ، وتفنيده اللغوى لحجج خصومه ، ونداءه الخـالد للمصريين ، وحضـهم على العمـل الدائم ، حتى تستعيد مصر مجدها القديم قال : (دهش الذين كانوا لا يرون فينا الا امواتا تتحرك ، كما بهت أعداء الوطنية المصرية ، من هذه الروح الجديدة التى دبت فى الأمة) ، وقالوا عجبا : (أيحيا هذا الشعب ؟ أتنهض مصر بنفسها ، لتعمل للاستقلال وحدها ؟ أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض ارادتها ؟ أتقابل اليأس والقنوط وتتغلب على الحوادث والكوارث . أجل يا اعداء مصر ، والف مرة أجل ، ان مصر بالغة آمالها ، ومحققة امانيها بارادتها وهمتها ، اننا وجهنا قلوبنا ونفوسـنا وقوانا واعمارنا الى اشرف غايـة اتجهت اليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمى اليه فى مستقبلها ، فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات توقفنا فى طريقنا ، ولا الشـتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنـا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية) .

(نعم ، لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحدا واحدا ، لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا : كونوا أسعد حظا منا ، وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئـات

والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى ، والحرية الأهلية والاستقلال المقدس) .

(بلادى بلادى لك حبى وفؤاد ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر) !!

***

القى مصطفى كامل هذا الخطاب فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ وتنبأ بقرب وفاته ، وكان قبل ذلك قد بعث فى سبتمبر من ذلك العام الى شقيقه على فهمى خطابا من باريس يشكو فيه ضعف جسمه ، واشتداد آلام الأمعاء عليه ، ويتنبأ بأن حياته قصيرة واجله قريب .

وعلى الرغم من اشتداد آلامه ، ونحول جسمه ، كان لا ينفك عن العمل ليل نهار بنفس فتية ، وروح قوية ، لا يقعد به الضعف عن الاقدام ، ولا يثنيه المرض عن الاستبسال ، وقد دفعه كفاحه ضد خصوم وطنه الى كفاحه ضد راحة نفسه وتغلبه على ضعف جسمه :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

لم يرفق مصطفى بجسمه النحيل الضئيل حتى أصبح روحا فى هيكل عظمى أو أصبح كله روحا عجيبة تتكلم وتعمل وتسير بلا جسم ، واذا كان نهوضه الوطنى فى ذلك الزمان نادرا ، ونبوغه السياسى بين الشباب نادرا ، ونشاطه الفتى بين المجاهدين نادرا ، وتفانيه الكلى فى حب وطنه نادرا ، فلا عجب اذا أعطى روحا فريدة نادرة تفرض ارادتها على الزمن ، وتتغلب على المصاعب ، وتعيش سليمة قوية سواء أبقى الجسم أم تداعى وانمحى .

نازل ـ مصطفى ـ المرض عدة مرات فكانت له الغلبة وفاز بالنصر وتماثل للشفاء فانتعشت آمال اصدقائه ومريديه ، لكنه عاد فى أوائل يناير سنة ١٩٠٨ فشعر بتعب فى المعدة الى جانب مرض ـ الأمعاء والكلى ـ فنصح له الأطباء بالاعتكاف فى فراشه .

راى الزعيم الشاب أن مرضه الشديد يخفى وراءه شبح الموت ، وانه على الرغم من قوة روحه لا يستطيع أن يكافح هذا المرض الفتاك ، ولكنه استسلم للراحة ، واعتكف فى فراشه عملا بنصح الأطباء لعله يطيل فى مدة حياته القصيرة اياما يخدم بها امته وبلاده .

وقبل وفاته بأيام دعا والدته ، فجلست بجواره ، واخذ يحدثها عن آماله ، ويشكو اليها ما ألم به من اسقام فصارت والدته تطمئنه ، وتهون عليه مصابه ، فدمعت عيناه ، ثم اجهش بالبكاء والتفت الى امه وقال :

(لست أبكى يا اماه على الحياة ، كلا وانما أبكى على مصر المسكينة ، آه لو عشت عشرين سنة أخرى لمت هانىء البال ، مطمئنا على بلادى . انها ستكون سيدة العالم فى يوم من الأيام) .

وهنا دخلت شقيقته الصغرى ـ نفيسة هانم ـ وشقيقه على بك فهمى ، فدعاهما للجلوس ، ثم أمسك بيد شقيقته ، وقال :

(كنت اتمنى أن أعيش طويلا ، واراك عروسا فى منزل زوجك) .

والتفت الى شقيقه على بك فهمى ، وقال :

(ستتعب يا اخى من اجل مصر ، ولكن لا تحزن) .

كانت مصر ــ كما يقول الطناحى ــ فى ذلك الحين قد علمت باشتداد المرض على زعيمهـا الكبير . فهلعت قلوبهـا وارتاعت نفوسها ، واتجهت بآمالها الى الله داعية متضرعـة ان يبقى لها ابنها البار الوفى لخدمتها ، المدافع عن حريتها ، وهرعت الوفود الى داره تسأل عن صحته .

وفى يوم السبت ٨ فبراير ، اى قبل وفـاته بيومين زاره الخديو عباس حلمى الثانى ، فنهض له الفقيـد من فراشـه واستقبله فى ابتهاج ونشاط ، كأن لم يكن به داء ، وعند توديعه قال له :

(لى رجاء يا افندينا ، وانا اشعر الآن بقرب الأجل ، أن تعطف على الحزب الوطنى ، فانه امـل مصر ، وقـد وصـلنا الى نجـاح كبير فى مسـألة دنشـواى ، واخراج اللورد كرومر ، وتغيـير وزارة مصطفى فهمى ، وانشاء مجالس المديريات ، وانتصارنا لتركيا فى مسألة طابة ، فطمأنه الخديو ، وتمنى له حياة طويلة) .

وفى مساء ذلك اليوم نام مصطفى نوما هادئا مريحا ، وابتسم صباح الأحد عن هدوء واطمئنان وتفاؤل بشفاء الزعيم ، وزاره بعض اصدقائه ، وفيهم امير الشـعراء احمد شـوقى فجلس يحـادثهم ، وانه لكذلك اذ شـعر بآلام شـديدة ، فاستأذنهم فى الاستلقاء على فراشـه واسرع الدكتور صادق رمضان ، فقـام باسعافه لتخفيف ما يشعر به من الم ، فقال مصطفى لطبيبه :

ــ (هل هنـاك أمل) ؟

فقال الطبيب :

ـ (نعم لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة) .

فهز مصطفى رأسه وقال :

ـ (بل انى أذوب الآن وعما قريب أموت) .

ثم التفت الى صديقه أمير الشعراء وقال له فى ابتسامة حزينة :

ـ (سوف ترثينى يا شوقى ، نعم ، أليس كذلك) ؟

فسكت شوقى ودمعت عيناه ، وفى ذلك يقول بعد وفاة صديقه الزعيم :

ولقد نظرتك والردى بك محدق
والداء ملء معالم الجثمان

يبغى ويطغى والطبيب مضلل
قنط وساعات الرحيل دوان

ونواظر العواد عنك أمالها
دمع تعالج كتمه وتعانى

تملى وتكتب والمشاغل جمة
ويداك فى القرطاس ترتجفان

فهششت لى حتى كأنك عائدى
وأنا الذى هد السقام كيانى

ورأيت فى ذاك الخيال عزائما
ما للمنون بدكهن يدان

وجعلت تسائلنى الرثاء فهاكه
من ادمعى وسرائرى وجنانى

وقام شوقى ، وقام سائر الصحب من الأصدقاء والمريدين ، وهدأ الزعيم قليلا ، واقبل المساء فانتعشت صحتــه ، ونشطت بنيته ، واخذ يسامر أهله ويمازحهم ، ويلعب معهم ــ الكتشينة ــ واستمر فى تلك الليلة يقظا الى الساعة الحادية عشرة ، ثم نام ، وفى الساعة الرابعة صباحا استيقظ ، فوجد نفسه غارقا فى بحر من العرق ، فدعا بملابس أخرى ، فأبدلها بملابسه ثم نام نوما هادئا لم يزعجه فيه ألم .

* * *

وفى العاشرة من صباح الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ دخل عليه شقيقه على فهمى ، وزميله محمد فريد ، وبعض صحبه ، فسألوه عن صحته ، فطمانهم ، وجلس يحــادثهم ، ثم لم يقو مصطفى على الحديث طويلا ، ولاحظوا تغيرا فى لونه ، وجمودا فى عينيه ، وشرودا فى فكره فاســتولى عليهم الجزع ، وســألوه عن المــه ، فقال : (لا شىء ، لا تخافوا) ثم اتجه الى فريد ، وقال :

ــ (تشجع يا فريد واستمر فى عملك بحكمة ليسهل عليك بلوغ الأمل) .

وصمت بعد هذه العبارة ، وكاد يغيب عن الوجود ، ثم تنبه قليلا ، وقال : (مسكينة يا مصر) واخذ يرددها ، وكانت آخر كلماته ، واستولى عليه تشنج لم يفق منه ، وصعدت روحــه الى عالم الخلد فى منتصف الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم المشئوم ، فكانت المــأساة اية مأساة ، وكان المصاب اى مصاب ــ

مصاب الوطن الحزين ، مصاب الشباب الناهض ، مصاب النبوغ النادر ، مصاب البسالة الفائقة ، مصاب الحجة الدامغة ، مصاب الاخلاص فى العمل ، والجهاد فى سبيل الحق ، وفى سبيل الحرية والشرف والكرامة والاستقلال .

ولا أجد فى كل ما قرأت وصفا لهذه الساعات الأخيرة لحياة نبى الوطنية مصطفى كامل ، أجمل وأدق وأصدق من رواية الطناحى .

ولم اسمع فى صباى أروع مما قصه أبى عن جنازة مصطفى كامل — مما سبق — ذكره — وكان من مشيعيه فى بواكير صباه تلميذا فى أول سنى دراسته بالمدرسة الخديوية ، وهو ما كان من الدكتور هيكل بدوره ، ولم يكن من شيعته ولا من مؤيدى الحزب الوطنى فى سياسته ولكنه يصف ما كان مما سبق ذكره ، ولم يكن قاسم امين هو الآخر على نهج مصطفى كامل ، والحزب الوطنى ، ولم يكن لطفى السيد بدوره غير ذلك ، ولكنهم جميعا عرفوا لنبى الوطنية جلاله وقدره وصدقه ، فأجمعوا على اكباره ، وكان لطفى السيد أول من نادى بتخليد ذكره واقامة تمثال له ، وكان قاسم أمين أول من نوه بما أصاب مصر بفقده ، ولم يجمع المصريون على اكبار زعيم من زعمائهم ، وقائد من قادتهم ما كان من اجماعهم على اكبار مصطفى كامل : يستوى فى ذلك من خالفوه الرأى والمنحى ، أو من وافقوه وتشيعوا له .

وكان بحق نبى الوطنية غير منازع .

١/٩ ـ الـوداع البـاكى

لم تبك مصر على فقيد من ابنائها ، كما كان بكاؤها على نبى الوطنية مصطفى كامل ، وكان تشييع جنازته يوما مشهودا من ايام تاريخها المديد ، ويشاء القدر ان يقام تمثاله على مفرق من الطرق ليراه كل غاد ورائح ، وان يسمى الميدان باسمه .

ويعد تمثاله تحفة فنية صورة وتعبيرا ، فالصـورة هى صورته كما عرفناها مما نشر منها فى حياته ، أما التعبير فهو قصة حياته وجهاده اذ يمثله واقفـا موقف الخطيب ، يرتكز بيسراه على تمثـال لأبى الهول مشـيرا الى تاريخهـا العريق ، منذ بزغ فجر الضمير من ارضها على عهد الفراعنة العظـام ، مشـيرا بيمناه الى رسـالة مصر الخـالدة على مـدى الزمن ، (احرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا) .

وقد ظل التمثـال حبيسـا فى المدرسة التى تحمل اسمه حتى نقل الى مكانه فى عهد الملك فاروق .

وبدات الجنازة مسيرتها ، عصر يوم الثلاثاء الحادى عشر من فبراير وقد اكتظت القاهرة بالمشيعين وقد وفدوا اليها من

كافة انحاء مصر قراها ومدنها ، وامتلأت الشوارع المحيطة بدار اللواء . فلم يبق مكان لسائر . وتوقفت وسائل المواصلات ، وما حانت الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم الباكى ، حتى اخذت الجنازة مسيرتها تتقدمها صفوف الخيالة من الفرسان ، ورجال الشرطة للمحافظة على النظام ، وفى اثرهم تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية يتقدمهم تلاميذ مدرسة مصطفى كامل ، فمدرسة دار العلوم التى انشأها على باشا مبارك ، وكان له من تقدير لنبى الوطنية ما اشرنا اليه من قبل ثم مدرسة القضاء الشرعى الى جانب طلبة المدارس فى الاسكندرية والقاهرة والأقاليم ، ولم يتخلف عنها تلاميذ المدارس الأجنبية ، فيكتوريا والفرير ، والمدارس العليا : الطب والحقوق ، والمهندسخانة والزراعة . والمدارس الصناعية ، ومدرسة البوليس .

هذا ما يقصه الرافعى عن جنازة الزعيم مصطفى كامل ، وان لم يشر الى ما كان من اهل دنشواى فى مسار الجنازة ، وهو ما اشار اليه الدكتور هيكل فى ترجمته لسيرة مصطفى كامل باشا — عند وصفه لجنازته بقوله :

(جاء زميل يبلغنى ما قررته المدارس كلها من الاشتراك فى تشييع جنازة الزعيم العظيم ، وكان يوم ١١ فبراير يوم حداد عام فى العاصمة ، وفى مصر كلها لم يشغل الناس شىء فيه غير جنازة الزعيم الشاب ، فالمدارس والهيئات الوطنية كلها كانت تفكر فى تنظيم الجنازة ، واهل الريف كانوا يفدون من اطراف البلاد للاشتراك فيها ، والحكومة كانت تعد وسائل الأمن والنظام ، والأجانب الذين راوا العاصمة جللت بالسواد وراوا اهلها اتشحوا بأسباب الحداد ، كانوا يفكرون فى العمق الذى تغلغل اليه الروح الوطنى من سويداء نفس هذه الأمة ، فلما سار النعش

يحمله على أعناقهم أهل دنشواى الذين حكمت المحكمة المخصوصة عليهم ، ثم كان لسعى مصطفى كامل أكبر الأثر فى العفو عنهم ، صمت كل ما فى المدينة ولم يبق أثر لحياة الا فى مشهد وداع هـذا الراحل رحلة الأبد) (١) .

ولم يشر الرافعى فى وصفه لجنازة مصـطفى كامل أيـة اشارة الى ما كان من ذلك ، ولم يشر الى هؤلاء الذين نالهم العفو من أهل دنشواي ، وهم الذين حملوا نعشه على أعناقهم فى جنازة الزعيم الراحل رحلة الأبد . وان جاء على ذكر مسارها ، وكبار مشيعيه والى ما قيل فى رثائه : وان قصر حمـل نعش الزعيم (على طلبة مدرسة الحقوق مندوبين لذلك من قبل جميع طلبـة المدارس العليا ، وكانت كل مدرسة تحمل علما مجللا بالسواد ، وفيه اشارة تدل عليها) .

وقد ســارت الجنازة ــ كما يقول ــ حتى جامع قيسون بشارع محمد على حيث أقيمت الصلاة ومن ثم الى المدفن بقرافة الامام الشافعى وكان الوداع الباكى فى رثاء الشـعراء وكلمـات التأبين .

وكما كانت حياته وكلماته وخطبه أغنية وشدوا على ألسنة المصريين من مريديه وأنداده وحتى الملاحـين له أو القافلين عن دعوته مؤثرين الراحة والعافية ، كان حبه واكباره ينفذ الى قلوب هؤلاء جميعا وان تباين الموقف واختلف الطريق .

وقد حفل جيله ، جيل ما بين الثورتين : ثورة عرابى وثورة سعد زغلول بالنابهين من الشعراء ، والأدباء والمفكرين ، بما لم

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل تراجم مصرية وغربية : مصطفى كامل باشا ص ١٢٥ .

يحفل به جيل من قبل أو بعد فى تاريخ مصر الحديث ـ كما أشرنا من قبل ـ وقد وقف هؤلاء جميعا دون استثناء ، مكبرين له ، مقدرين لجهاده . مؤيدين له وان اختلف النهج وتباين المنحى ، فكان لطفى السيد أستاذ الجيل ، وقاسم امين بك واسماعيل باشا صبرى ، من الذاكرين لفضله على الحركة الوطنية ، ومن الشعراء أمير الشعراء احمد شوقى ، وشاعر النيل حافظ ابراهيم .

وكان رثاء شوقى مليئا بالأسى ، والحب والاكبار وقد سأله الرثاء قبل أن ينتقل الى رحاب الخالدين ، وارتفع به فى رثائه له الى مقام النبوة فيقول :

المشرقان عليك ينتحبان
قاصيهما فى مأتم والدانى

لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى
فى الزائرين وروع الحرمان

لم تألها عند الشدائد خدمة
فى الله والمختار والسلطان

يا ليت مكة والمدينة فازتا
فى المحفلين بصوتك الرنان

ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا
ما غاب من قسى ومن سحبان

ثم يقول :

يا طاهر الغدوات والروحات
والخطرات والأسرار والاعلان

هــل قــام قبلك فى المدائن فاتح
غـــان بغـير مهند وسـنان

يدعو الى العلم الشريف وعنده
ان العـلوم دعـائم العمـران

لفوك فى علم البـلاد منكسـا
جزع الهلال على فتى الفتيان

يزجون نعشك فى السناء وفى السنا
فكانـــا فى نعشـــك القمـران

وكانـه نعش الحسـين ـ بكربلا ـ
يختـــال بين بــكى وبين حنـان

ويذكر ساعة احتضاره فيقول :

ولقد نظرتك والردى بك محدق
والـداء مـلء معـالم الجثمـان

فهششت لى حتى كانك عـائدى
وانــا الذى هد السقام كيـانى

ورايت كيف تموت آساد الثرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان

وجعلت تســالنى الرثـاء فهاكه
من ادمعى وسرائـرى وجنـانى

لولا مغالبــة الشــجون لخاطرى
لنظمت فيـك يتيمـة الأزمـان

وانا الذى ارثى الشموس اذا هوت
فتعـود سـيرتها من الـدوران

ويمضي شوقى فى رثائه ليذكر كيف أحب مصطفى كامل مصر وكيف كان اكباره لها :

يا حب مصـــر وياشــهيد غرامها
هـــذا ثرى مصر فنم بامـــان

اخـلع على مصر شـبابك عاليا
والبس شـباب الحور والولدان

فلعل مصرا من شـبابك ترتدى
مجـدا تتيـه به على البلـدان

فـلو ان بالهرمين من عزماتـه
بعض المضـاء تحـرك الهرمـان

حتى يقول :

اقسمت انك فى التراب طهـارة
مـلك يهـــاب سـؤاله الملـكان

وحين قام الشـاعر العظيم اسماعيل باشا صبرى لرثائه غلب عليه الأسى ، بعد ان ألقى بيته الأول منها ، وهو :

اداعى الأسى فى مصر ويحك داعيـا
هددت القوى اذ قمت بالأسى ناعيا

ولم يكمل ، وطلب الى الشاعر حافظ ابراهيم القاءها بدلا عنه ، فيستهلها قائلا :

اجـل انا من ارضاك خلا موافيـا
ويرضيك فى الباكين لو كنت واعيــا

وقلبى ذاك المورد العذب لم يزل
كما ذقت منه الحب والود صافيـا

سوى انه يعتاده الحزن كلما
رآك عن الحوض المبرد نائيا

حتى يقول :

يا مصطفى تالله نومك رابنا
امثلك يرضى أن ينام اللياليا

تكلم فان القوم حولك اطرقوا
وقل يا خطيب الحى رايك عاليا

فقدناك فقدان الكمى سلاحه
وسارى الدياجى كوكب القطب هاديا

ويكون ختام رثائه :

نحييك سيفا بات فى الترب مغمدا
تقلد فيما مضى الحق ماضيا

ويقوم شاعر النيل حافظ ابراهيم فيلقى بصوته الجهورى قصيدته فى رثائه يستهلها بقوله :

نثروا عليك نوادى الأزهار
واتيت انثر بينهم اشعارى

والازهار الندية هى الأزهار المبللة بالندى ، ثم يقول :

زين الشباب وزين طلاب العلا
هل انت بالمهج الحزينة دارى

حتى يقول مخاطبا نبى الوطنية :

تسعون الفا حول نعشك خشع
يمشون تحت ـ لوائك ـ السيار

خطوا بأدمعهم على وجه الثرى
للحـزن اسـطارا على اسـطار

ويختمها بقوله مشيرا الى مواقفه الوطنية ، فيقول :

واهـا على تلك المواقف انهـا
كانت مواقف ليث غاب ضارى

لم يلوه عنهـا الوعيـد ولا تنى
عن عزمه قول المريب : حـذار

فاهنـأ بمنزلك الجديد ونم بـه
فى غبطـة وانعم بخـير جـوار

واستقبل الأجر الكبير جزاء ما
ضـحيت للأوطـان من أوطـار

نعـم الجـزاء ونعـم ما بلغته
فى منزليـك ، ونعم عقبى الدار

ويستهل خليل مطران ـ شاعر القطرين ـ رثاءه ، بقوله :

اعـلى مكانتـك الالـه وشرفـا
فانعم بطيب جواره يا مصطفى

اليوم فـزت باجر ما اسـلفته
خيرا وكـل واجـد ما اسـلفا

وجزيت من فانى الوجود بخالد
ومن الأسى المـاضى بمقتبل الصفـا

ولعل اكمل ما يمكن أن يقال فى ختام هذا ـ الوداع الباكى ـ

ما ختم به الدكتور هيكل ترجمته لحياته فى كتابه ــ تراجم مصرية وغربية ــ قوله :

(ودع مصطفى كامل هــذا العالم وقــد عمل لوطنه فى عشر سنوات ، ما لم يعمله غيره فى عشرات السنين ، بل ما لم تعمله أجيال بأسرها ، لذلك بقيت ذكراه تحييها مصر كل عــام . ومن احيت ذكراهم فاولئك لهم الخلد فى ضمير الدهر . وكفى بذلك جزاء موفورا) .

الفهـــرس

الصفحة

رقم الايداع ١٩٩٤/٧٧٨٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 4059 — 7

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

كانت حياة مصطفى كامل، وكان كفاحه لقاء بين جيلين، جيل الثورة العرابية وقد انتهت بخيانة الخديو توفيق واحتلال مصر وقد أحتلها الانجليز سنة ١٨٨٢، وجيل ما بعد الثورة العرابية، حين بدأت الأمة تنسى مظالم الماضى، أيام حكم اسماعيل، وتشعر بشدة وطأة الحكم البريطانى الذى قام على أساس من المصالح المادية وحدها، فلم يعن الانجليز الا بتخفيف الضرائب ليخيم الجهل، ولكن الغرض الأوفى للتعليم خلق الموظفين... فى هذه الفترة التى شعرت فيها الأمة بالحاجة المعنوية للعزة القومية، وللكرامة الانسانية بعث القدر مصطفى كامل بشيرا بهذه الحاجات السامية، رفيع الصوت، عالى الكلمة، طلق اللسان، قوى الجنان، حلو الأسلوب، يتغنى لقومه بما تجيش به نفوسهم فى غور أعماقها، فكان طبيعيا أن يلتف الشباب حول هذا الورد من الكلام السائغ، يسمعون عنده الأناشيد التى تطرب لها نفوسهم، وتهتز لها قلوبهم، ويجد فيها شعورهم الحبيس منفذا ومتنفسا.

١٦٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب